المركز القومى للترجمة

دانيلى ديل جوديتشيه

إستاد ويمبلدون

ترجمة وتقديم

سيد الشيخ





3.5.2016

2161



سلسلة الإبداع القصصى



إستاد ويمبلدون

رواية

تـأليف: دانيلى ديل جوديتشيه

ترجمة وتقديم: سيد الشيخ



2014

إستاد ويمبلدون

رواية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2161
- إستاد ويمبلدون
- دانيلى ديل جوديتشيه
- سيد الشيخ
- اللغة: الإيطالية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة:

Lo Stadio di Wimbledon
Daniele del Giudice

تم نشر هذا الكتاب بالتعاون مع وزارة الخارجية الإيطالية

Questo libro è stato pubblicato con il contributo del Ministero degli Affari Esteri Italiano





شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

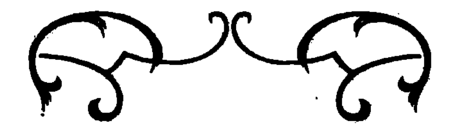
جوديتشيه، دانيلى ديل.
إستاد ويمبلدون: رواية / تأليف دانيلى ديل جوديتشيه؛ ترجمة وتقديم سيد الشيخ. - ط١.- القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٤.
عدد الصفحات: ١٩٦ صفحة. المقــــــاس: ١٤ × ٢٠ سم.
تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٨٩٥٥٢
١ - القصص الإيطالية.
أ - الشيخ، سيد (مترجم ومقدم) .
ب - العنوان .

٨٥٣

رقم الإيداع ٢٢٣٤٩ / ٢٠١٤
ISBN 978- 977 - 718- 955- 2

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

المحتويات



الفصل الأول

غططتُ فى نوم قصير قارب النصف ساعة، بعدها شرعت أسترجع كل شيء مرة أخرى. وكلها أمور تقليدية للتواصل يمكننى أن أسترجعها فى يُسرٍ، وأنا أجلس داخل قطار.

وقد بدأتُ بسماع صوت يقول: نحن واقفون، ولكن ليس فى محطة قطار، وكان هناك سكون شديد، وكان يبدو أن توقُّف القطار لن يستمر طويلاً فقد كانت إشارة المرور مغلقة.

فتحت عينىّ، وربما لم أكن مستعدًا لسماع أى شيء. وإذا بالضابط الشاب، الذى كنت قد أعرته جريدتى قبل أن أخلد إلى النوم، يقول والابتسامة تعلو وجهه: «لقد تعطّل القطار». ونهض وأخذ قبعته والمعطف الواقى من المطر وحقيبته الجلدية من فوق الرفّ، ثم أطل من نافذة القطار وأشار بصورة قاطعة: «من الأفضل أن نسير على أقدامنا».

نظرتُ أنا أيضًا من النافذة، وكان من الصعب التحقق من الأمر، فنحن نقف بين الصخور والبحر فى منطقة منعزلة. أخذ الضابط يقترب من باب الكابينة، وهو يرتدى معطف المطر،

ويجذب إلى أسفل سُترته العسكرية وقال: «لا يتبقّى غير كيلو متر واحد فقط للوصول إلى المحطة الرئيسية بعد المنحنيات، ولو انتظرنا حتى حضور من يقومون بدفع القطار المعطل من «تريستة»، فسوف نمكث هنا نحو ساعة». وألقى إلىّ بالتحية دون أن يغادر المكان. وكنت لا أزال فى بداية إدراكى للواقع ولم أشأ أن أخالف الرغبة فى مغادرة المكان، لذا جمعت أمتعتى وسرتُ خلف الضابط، وعندما تجاوزنا القاطرة، تحدث الضابط مع القائمين على إصلاح القطار وذكروا أشياء فنية بشأن القاطرة المعطلة، فكانوا ينظرون إلى الأسلاك فى الهواء ويضحكون، كان الصبح مشرقًا وكأننا فى فصل الربيع، أو ربما ستكون كذلك إقامتى هنا التى لا قيمة لها ولا أجد لها تفسيرًا. كنت أريد أن أضبط خطواتى وفقًا لفلنكات القضبان، ولكن كانت تنقُصنى بعض السنتيمترات، لذا كان علىّ أن أضاعف من خطواتى من حين لآخر، وبسرعة أيضًا؛ لأن الضابط كان يسير مسرعًا. وقد شرح لى الضابط بالتفصيل العطب الذى لحق بالقطار. وتطرّقنا على الفور للحديث عن خط السكة الحديدية، والضغط ومصابيح المنحنى وعدد المنحدرات، أو من الأفضل أن أقول؛ إنه كان يتحدث بتمكن وبتلقائية، بينما كنت أبذل جهدًا فى الحد من لغتى القاصرة. بدأنا السيْر: كان هو بالخلف وحقيبته تتمايل فى يده، أما أنا فكنت أسير ويداى فى جيبى. سألنى: «هل ترى المستقبل؟»

كنت أرى المدينة لأول مرة، وكذلك الخليج والجبال والمنارة والقلعة والبيـوت هنا وهناك، وبالتأكيد كنت أظـن أن هذا المشهد سـوف يؤثر علىّ. شـرع الضابط يضحك، فقـد كان يتحدث عن قضبـان السكة الحديدية: هنا متوازيـة. واستمر حديثه دون توقف إلـى أن وصلنا إلى المحطـة. ثم قال لى: «ضع فـى اعتبارك أننا نقوم بعمل مجموعة من الحسابات بالنسبة للمستقبل لنصل إلى عيْب فى الرؤيـة». لقد فكرت فى ذلك ولكن لم أعرف كيف أرد عليه، وهكذا واصلنا السير فى صمت.

وقد شعرت باحتياجى لقدح من القهوة، بل لتناول وجبة إفطار حقيقية. لقـد رأينا حيوان «الخلد» يقترب ويتجه نحو القطار وكان حجمه كبيرًا، ثم رأيناه يبتعد عن المحطة بعد أن سمع صوت تحرُّك قطار الديزل.

كانـت إشـارات السكـة الحديديـة تُرى عـن بُعـد، ولكن عند الاقتـراب منها تقل رؤيتها وتبدو من أسفـل مُطفَأة. وقد شرح لى الضابـط أيضًا أسباب ذلك. وبعد بُرْهة سألتـه: هل حقًا يتم تصميم موضـع عند إنشـاء الكبارى لتلغيمهـا؟ توقف الضابـط عن السير واعتـراه التوتُّر لأول مرة. هدّأت من روْعه وكأننى أنزع سحابة من هذا المشهـد. استأنف الضابط السير قائـلاً: «يتم مسبقًا تصميم

بعضــ غُرف للتفجير، حيث توجـد الدعامات الكبرى». ولم يكن مقتنعًـا؛ لذا سألنى لمـاذا أريد معرفة ذلك. فقلت إنـه يبدو لى أمرًا طيبًا معرفة حجم العمل وببساطة: فهم يفكرون فى شىء ويحققونه بكل أبعـاده، بما فى ذلك المكان الملائم لتدميـر هذا الشىء وبأقل مجهود. فقال: «إنه إجراء طيّب، ولكن لم يعودوا يصنعون الكثير من غرف التفجير هـذه. والحرب الآن لا تنتظر عمليات انسحاب هكذا متواضعة مخلّفة وراءها جسورًا مُدمَّرة».

وصلنـا الآن إلـى الأرض المنبسطـة، وأعنى أننـا وصلنا إلى المدينـة. وفى نهاية المسافـة تجنّبت سؤالين غيـر مباشرين حول سبـب حضورى إلى هنا. لم أرغب فـى الحديث عن ذلك، وعلى أية حال لم أتطرق إلى هذا. ويبدو على العكس، أن الجسور كانت تستهويـه، غير أنى لم أشـأ مناقشته سر ذلك. وقـد حكيت له أننى كنـت قد شاهدت تركيب أحد هذه الجسور المصنوعة من الخرسانة المسلحـة على طريق الأوتوستراد. وكان الجسر عبارة عن قطعة أرض منبسطـة سابقة التجهيز ترتكز علـى دعامات. كان الجسر أطـول من التعشيقات، وكان يبدو وكأنـه غير موجود، وكان لا يمكـن الاعتقاد أنهم قـد أخطأوا فى القياسـات. وكانت تخرج من جوانب المسطح الأربعة أسلاك من الصلب، تم ربطها بروافع ثم بدؤوا فى جذبها. كانوا يشدونها ببطء وهم يصيحون بصوت عالٍ.

وقد تم ضغط الإسمنت فى الأول ثم تمَّ تمديده، وتقطيعه فى النهاية محدثًا صوتًا حادًا ومدويا فى الوادى، ثم تم حمْل الجسر إلى مكانه المحدد. ولـم أقل للضابط، إن لحظة تركيـب الجسر كانت لحظة فوريـة مطلقة كان يبدو فيهـا كل شىء حاضرًا. توقـف أيضًا هذه المرة ووضـع الحقيبة تحت ذراعه، فقـد كان يقيس محيط أجزاء مـن السماء بيديـه، وكان يقول دائمًـا «انظر...» وحـدِّد أنواعاً مـن الإسمنت، وطـول البحـر (مسافة بين عموديـن) والروافع والحمـولة.

وسألنى إذا كنت قد فهمت، فقلتُ «نعم»، ولكن فى الجزء الأخير مـن كلامه كنت قد سرحت، فقد كنـت أشاهده وهو يقف ساكنًا بين القضبـان، وكنت معجبًا بذلك. تجاوزنا القضبـان الخاصة بتغيير مسـار القطـارات، ووقفنا تحت سقف محطـة رئيسية. لقد تخيلت دائمًا هذه الزيارات، وربما تخيلت كل شىء بشكل مختلف، وربما يكمن ذلك فى وصولى إلى «تريستة» كما لو كنت أنا القطار. توقف الضابـط فى بهو المحطة من جديد وخلع قبعته وشرع يهذِّب شعره وقـال: «هل يوجد شىء آخر تريد أن تعرفه عن الجسور؟». فقلت له لا وأنا أبتسم، ولكن هل تدلنى على المكتبة القديمة؟

وتصافحنـا وذهب هو تجاه بوابة الخـروج واتجهت أنا نحو المقهـى.

كنت أتوقع أن تكون المكتبة صغيرة الحجم وقيِّمة فى نظر القليل من الناس. كنت أظنها أثرًا: أثرية فى موقعها وفى اتساع أرففها وفى تجليد كتبها بالجلد، وفى تعامل رجل المكتبة ذى النظارات الذى يحرس المكتبة فى أدب وثبات، وهو يرتدى رداءً وقورًا. إن صوته ذاته الذى سمعته يقول: «فيم ترغب؟» يحجب الرؤية. يجب أن أسأل عن شىء، وعندما أسأل فإن الإجابة ستكون بالنفى: «لا، فالكتب عن مدينة «تريستة» وأهلها هى أول كتب تنفد». لقد بدا لى أن استضافة الأشخاص داخل هذا المعبد تكون قصيرة جدًا، ولكن تملّكتنى الرغبة فى أن أبقى لفترة أطول، لذا سألته: «هل يوجد كتالوج؟» هز الرجل رأسه وتحرّك نصف خطوة نحو الباب.

وحيث إن الموضوعات التى كنت أبحث عنها غير موجودة، فقد أشرت بصورة مبهمة إلى الموضوع. تقدم الرجل أكثر وقال: «لا، لا يوجد عندى شىء من ذلك، ابحث فى مكتبة للكتب الحديثة». ومع لفظ «حديثة» يجب على المرء أن يتخيل العديد من الكتب المعاصرة، ومكتبات بلا تاريخ والعثور بسهولة على الكتب ثم الدخول والدفع والمغادرة.

وكلما اقترب الرجل منى، كنت أتحركُ جانبًا. وعندما أصبحنا متجاورين طلبتُ منه معلومة عن الطريق. فأعطانى إياها فى

حماس وبتفصيل دقيق للخرائط وأرقام المبانى. سرت خلف الرجل، ومع رؤيتى للصفحات القديمة الصفراء، كنت أدرك لماذا كان صادقًا تصوُّرى لهذه المكتبة بأنها معبد: كان المكان الذى نقف فيه ولم يجعلنى أتجاوزه، يتكون من مدخل، تليه صالة يتفرع من جانبيها رواقان مغطيان بالأرفف. وهناك بالداخل غرفة صغيرة أشبه بالزنزانة، كانت تقف هناك بأعلى صورة عملاقة لـ «أومبرتو سابا»: كان رجلاً عجوزًا، قصيرًا يرتدى زيًا أسود، يقف بثبات بخطوة نحو الأمام، وعصاه الموازية لساقه تتقدمه. وهناك بأسفل كانت توجد امرأة ترتدى «مريلة» زرقاء تحمل فى يدها ريشة صغيرة وتقوم بأعمال النظافة. ولم يكن ذلك ليدنِّس من قدسية المكان، ولكن ما كان يسىء إليه، هو الخدوش الموجودة بالخشب أو الأرفف الأخيرة الخاوية على عروشها. وكان هناك لون عام أشبه بلون ورق الطرود، وكذلك فى رائحته. وبينما كنت أشاهد ذلك، مد الرجل يده وصافحنى بلا حرارة.

وبالخارج ألقيت نظرة أخيرة على الكتب القليلة المعروضة بإقناع على خلفية عبارة عن غلالة حمراء مطوية، كما هى الحال فى فاترينات مُصفِّفى الشعر.

واصلتُ السيْر فى شوارع مستقيمة وفقًا لخريطة ملائمة تسمح برصد التقاطعات بصورة جيدة. حددت مكتبة حديثة، وبالفعل

دخلتُ وخرجتُ منها. وقد حصلت منها على مزيد من المعلومات، وقمت باتباعها فاتجهت نحو البحر. كان اليوم مشرقًا تشوبه بعض البرودة، وكان منظر البحر يبدو غريبًا، ربما لأننى لم أستطع أن أتصور هذه المدينة إلا من مدن الجنوب، وكان يربكنى موقع الشمس بالنسبة للماء ونوع الضوء ولونه، أو ربما لأننى تعوّدت على البحار التى تنساب بمحاذاة الساحل، وليست التى تبدأ كما هى الحال هنا.

أقف الآن داخل مكتبة أخرى: وكانت تعج بكتب كثيرة وعتيقة، بيد أنه لا يكترث بها أحد. كان بائع الكتب يبدو أيضًا ببنيانه القوى وكنزته السميكة على هيئة حرف V، وأخرى مستديرة من تحتها أشبه ببائع الأسلحة أكثر منه بائعًا للكتب. وعلى الرف كانت توجد بقايا لمجموعات كثيرة من الكتب العتيقة غير الأثرية، وكانت هى بمثابة البطولة الحقيقية لبائع كتب. وقد سألته عن كتابين، وعلى الفور صعد إلى الطابق الأعلى، والذى - رغم الألفة التى تحيط بالمكان - لم يكن باستطاعتى الولوج داخله. وبعد قليل عاد البائع ومعه كتاب مضى على طباعته نحو ثلاثين عامًا. كانت على غلاف الكتاب صورة المؤلف وكأنها ملوّنة باليد: أشقر البشرة، شعره ناعم وممشط نحو الخلف، ويرتدى نظارة ورابطة عنق، وعلى رقبته تبدو تجعيدة مستديرة. وقد اتفقت مع البائع على سعر مناسب، كان، على أية حال، أقل من أسعار الكتب اليوم.

وقـد اقتربتُ مـن مجموعة من الكتب تحمل لافتـة مكتوبًا عليها «تريستة». لم تكن هناك المجلـة التى بداخلها مقال الكاتبة، ولكن كان يوجـد كتاب لها به عـدة مقالات وبداخله المقـال الذى أبحث عنـه. كان بائع الكتب قد شرع فى تنظيف أرضية المكتبة. أشرت له علـى الكتاب وضربت بالسبابة على اسـم المؤلفة قائلاً له: «هل مـا زالت على قيد الحياة؟»، فرفع رأسه وألقى نظرة على الغلاف ثم قال: «نعم أعتقد ذلك. وقد داهمتها بعض الأمراض المزمنة». وتملّكتنـى الرغبـة فـى رؤية الكتـب واحـدًا تلو الآخـر، فهناك مجموعـات من الكتب أحتـاج إليها منذ زمن، وهنـاك كتب أسأل عنهـا فى كل مدينـة وفى كل مكتبة. وسأجـرّب السؤال عنها هنا. امتعضـ الرجل قائـلاً: «لا، هذه الكتب لا»، ولمـاذا؟ قال: نظرًا لأن فى هذه المدينة توجد لغات مختلفة وحرف كثيرة، ونظرًا لقلة المكتبات، فإنه يجب الحفاظ على كل شىء، بدءًا من الكتيب التقنى (الفنـى) إلى كتب الأدب. ولكن كل شـىء يجب أن يكون له أيضًا حد. خرجت مـن المكتبة وقد تملكنى التـردد. فقد كان يجب علىّ أن أواصـل السير نحو الجامعة، وفقًا لنصائـح بائع الكتب القديمة فـى هذا الشأن، فضلاً عن الذهاب إلى مكتبة مجلس المدينة. كانت تلك اللحظة التى شعـرت فيها بالرغبة فى الضياع والتجوّل. ربما لـم يكن هناك طريـق، ولكن تقاطع بين الاحتمـال واللا احتمال.

كما لو كان كل تحرُّك أقوم به لكى أرى أين سيحملنى، أكتشف بعد ذلك، أنه لم يكن إلا البداية التى كنت أبحث عنها. كنت أود أن أحتفظ بشىء من المقاومة مع بعض الدفعات الصغيرة الكافية، والتى لا غنى عنها.

وصلت على هذا النحو إلى مكتبة مجلس المدينة، وقمت بفحص عشرات من بطاقات التعريف بالكتب، ومن حين لآخر كنت أمرُّ بإبهامى فى عُجالة بين هذه البطاقات، وأنا أقف مكانى، وكانت الكتابة داخل البطاقات تمر أمامى مُسرعة. ثم بدأت أحمل أدراج البطاقات إلى الخارج وأضعها على المائدة بين فتاتين. ومن البطاقات كان يمكن تكوين فكرة عن تاريخ المدينة. بعض العناوين التى ترجع للقرن الثامن عشر كانت تثير فضولى: «مثل رحلة الكتاب والحياة الموازية» «أو» عن كيفية تحويل مكان قديم كاتبه إلى قديم». ولكن كم يمكن أن أتوه؟ وكم يمكن أن أحيد عن الطريق؟ وانتهى بىَ الأمر بأن طلبت أكبر عدد من الكتب يُسمح به، وهو ثلاثة كتب، ولكن لم أجد فيها تقريبًا شيئًا، فتركتها مفتوحة على المائدة. كانت المكتبة تخضع لأعمال الترميم: فعند السلالم، حيث كنت أذهب لأستنشق الهواء، كان هناك مشهد لهزيمة وتدمير حربى. فكانت أشبه بمستشفى عسكرى يتم إعداده بصورة مؤقتة. أخذت كتابى الذى يحمل غلافه صورة مؤلفه الأشقر، وأوضحت

لأمين المكتبة أنه بالفعل كتابى، كان فهرست الأسماء يحمل بالطبع اسم الشخص الذى حضرت من أجله إلى هذه المدينة. ولكن حتى ذلك الحين لم أكن قد قرأت الصفحات الخاصة به. كنت، على العكس، أبحث عن إشارات خاصة بالكاتبة.

وذات مساء، حضر أحد أصدقائنا المعتادين وبصحبته حفيدته الشابة وقدمها لنا ونحن جالسون فى «مقهى غاريبالدى». نظرت إلينا الفتاة نظرة عابرة بعينيها اللامعتين، وأصغتْ إلى بعض عباراتنا، ثم ألقت فى النهاية عبارة أدهشتنا جميعا-، وكأنها كانت ترغب فى إنهاء المناقشة ثم انصرفت. أذكر أن نظرات الحاضرين ظلت تلاحقها وكان «أسفيفو» يجلس بالقرب منى فصاح عندئذ قائلاً: «يا لروعة أعين تلك الفتاة!»

عدتُ إلى صالة المكتبة، وقمت بترتيب أشيائى، نظرت إلى مجموعات الكتب والتماثيل النصفية التى كانت تملأ تجاويف الجدران. كانت المكتبة مكانًا هادئًا يمكننى أن أبقى به، حيث يصبح الكثير قليلاً، وأنجز عملى الذى يزداد يومًا بعد يوم ما بين السِّيَر الذاتية وقوائم الموضوعات، بل إن المائدة التى أجلس عليها أصبحت وكأنها مِلك لى، وهذا أفضل من الجلوس على المقهى فى منتصف الصباح مع إحدى الفتيات، والتى إن عاجلاً أو آجلاً سوف أعقد معها صداقة. أما هنا فليس لدىّ شىء يشغلنى.

كنت ما زلت مترددًا فيما سأفعله بعد الانتهاء من العمل داخل المكتبة. هل أذهب إلى الجامعة؟ قد تكون مغلقة. ثم هل أذهب إلى الجامعة القديمة أم الحديثة؟ هذا الأمر يجب أن يعرفه سائق الحافلة، عندما أسأله عن الجامعة. أخطأت في ركوب الحافلة فنزلتُ مسرعًا. سرت هنا وهناك لمرات عديدة ما بين الحيّ وميدان البلدية، وهو ميدان ذو طابع أوربى تمامًا، يشبه فى ثلاثة من جوانبه «سالزبورج» أما فى الجانب الرابع، حيث كان يجب أن يكون هناك مسرح، نجد البحر.

وصلت إلى المحطة المقصودة دون أن أقرر ذلك. انتظرتُ قليلاً. هل أذهبُ إلى شارع «سيسليا ريتماير؟» استبعدت ذلك، فلست فى طريقى للحج. يمكننى أن أذهب إلى مصحة علاج الأمراض المزمنة. كانت قد مرت بضع عشرات من الدقائق على صياح «إسفيفو». والمسافة بين صورة فتاة «لامعة العينين» وبين ما كنت أراه عندئذ، كل ذلك الوقت، استمر بمقدار ما انتظرت الحافلة. كم كانت تبلغ من العمر؟ حاولتُ أن أصل إلى ذلك كلما استعدت فى ذهنى مشهد المقهى. ومع وجود نقاط ثابتة، فقد كانت حساباتى كلها تقريبية. كنت أتمنى بمنتهى البساطة أن يكون عمرها مناسبًا لعمرى.

هل أذهب إلى مصحة الأمراض المزمنة؟ هل أذهب بالفعل إلى الجامعة؟ أم أذهب لتنـــاول طعام الغداء؟ كان هناك على الرصيف المقابـل يسيـر اثنان من الزنــوج. وكان هناك رجـل عجوز من «تريستـــة»، مع زوجته، وقد أخذ يعلّق على الزنوج. أما أنا، فقد شرعتُ أعلــق فى سرِّى على مدى انتماء هذا الرجل التريستى إلى مدينة «تريستة». ومن يدرِ كيف سيعلق علىَّ بمجرد أن ينتهى من النظــر إلىَّ، وماذا سيكون رأيه الآن، وأنــا أبدو بوضوح شخصًا غريبًــا، بالفعـل الآن مــع وصول الحافلــة، استــدرتُ وغادرتُ المكان.

بدأتُ أشعرُ بالوهن شيئًا فشيئًا مع إعادة المرور بنفس الشوارع التــى سلكتها من قبل، ومع عبــورى مرة أخرى للميــدان الفسيح بجانبــه، المفكك فــى الجزء الذى لم أكــن أنظر إليــه. كان هناك أيضًا داخلى وطبيعــى لسرعة الحافلة، وذلك انتظارًا لبناء مطعم. ولقــد عثرت على أحد هذه المطاعم فى قلب الحى اليهودى، وكان كل شــىء به علــى ما يــرام، حتى الفاكهــة كانت طيبــة المذاق، وقــد قررتُ ألا أفكر فيمــا أفعله هنا. وقد اعتــرت خيالى حالة من الكسل الشديد فيما يتعلق بصــور الملاكمين على الجدران والمدير النابوليتانى. كان ينهض فى كل مرة ويذهب إلى المطبخ، ويُحضر طبقًــا ويضعه على مائدتى ويجلس لتنــاول الطعام مع الأسرة التى

تجلس بجواره. كانوا يتحدثـون بلهجة سليمة كنوع من المقاومة. طلبـت دليل التليفون، وحاولت إعمـال عقلى كتدريب ضد التبلد، وفى نهاية الأمر انحصـرت الأرقام المتاحة فى ثلاثة فقط. منزل الكاتبـة، والمستشفى البارز فـى الدليل، ومستشفـى آخر، ولكن كانت الإشارة فيه إلى قسم الأمراض المزمنة.

الرقم الأول لم يرد، والثانى لا أعرف، أما الثالث فقد كان هو الرقـم الصحيح. وقـد سألت عن الموعد الـذى يمكننى فيه الذهاب إلـى المستشفى. ولكـن على الجانـب الآخر، كان هنـا شىء من الحيـرة، حيث جاء الرد: «ربما فـى الخامسة». وقد تخيلتُ بقائى ساعتين أخريين هكذا، فقلتُ: «ألا يمكن أن أحضر الآن؟»، وجاء الـرد بصوت لرجل: «نعم يمكنك التفضُّل بالحضور وقتما تشاء». كان الصـوت يبدو متساهلاً وغير مشجع. ربما لم تكن المشكلة فى تكدس الفحوص الطبية. ذهبت مسرعًا واستقللتُ سيارة بالأجرة، وأعطيت العنوان للسائق وغادرنا وسط المدينة. فقد كان المستشفى فـوق تل صغير على حدود المدينة. ولم يكن مبنى واحدًا بل كانت عدة فيلات صغيرة عند سفح التل بها حدائق ونباتات الزينة. أصر السائـق على أن يحملنـى حتى بهـو المستشفى. وفى تلـك الأثناء كنـت أحسب للمـرة الأخيرة عُمْـر المرأة، وعلى أيـة حال كانت آخـر مرة أستطيع فيها أن أتخيلهـا. كان المبنى هادئًا، كانت هناك

عـدة درجات قليلة كان علىّ أن أصعدها. وعند الدور المرتفع بين الأرضـ والأول، وجدت بالخلف بابًا زجاجيًا. كان هناك رواق ذو لون أخضر، وكان يشع ضوءًا يشبِّه بالضوء فى دول الشمال، فــى وقت ما بعد الظهيرة، نعم كان هناك شىء نمساوى ـ مجرى، ومرة أخـرى لا أدرى لماذا، كانت هناك صـور حرب. لم يكن هناك أى ممرض؛ كان يوجـد فقط فى نهاية الرواق رجل عجوز يرتدى بيجامـة ويسير ببطء بجوار حائط الرواق. استدار الرجل ببطء وبـكل جسده حتى يرانى، كما لو كان مـن الصعب عليه أن يستدير بجزء من جسده وبصورة منفصلة. دخلت أول باب يفصل بينـى وبينه فإذا به مطبخ. وكانت بداخله امرأة بدينة، أشارت إلى الدور الأعلى وبالتحديد الغرفة التى توجد فوق المطبخ.

صعدت مجموعـة أخرى من درجات السلـم، كان هناك باب آخـر من الزجاج، وكان هـذا الطابق مشابهًا تمامًـا للسابق. كان مدخل الغرفة يوجد هناك بأسفل، ورأيتنى أسير أنا بمحاذاة الحائط وتوقفـت قبل عتبة الغرفة. لـم أكن أود أن أقـدم نفسى بمفردى، فلـو كان ترتيب الغُرَف فى هذه الـدور مثل السابق لوجدت غرفة التمريضـ بسهولة. وعندما استدرتُ وجدتُ خلفى ممرضًا، وهو شاب ذو شعر طويل ويرتدى صندلا أبيض. قال إننى تحدثت معه عبر الهاتف. كدت أطير فرحًا، ولكن دفعنى داخل الغرفة. كانت

الغرفة كبيرة ومضيئـة وشديدة التعقيد. كانـت تخلو من الستائر. كان أول شـيء أجده هـو السرير على اليسـار، بالقرب من باب الغرفة. وكانت المرأة نحيلة الجسد بصورة مذهلة.

قلتُ فى صـوت خافت للشاب: «ألا تتعب مـن الكلام؟». فرد علىّ بصـوت عالٍ، كما لو كانـت المرأة غير موجـودة بالغرفة: «هل تمزح؟ إنه من المفيـد لها أن تتكلم. تكلمى قدر استطاعتك». وجاءت ممرّضـة فى منتصف العمر، وشرعـت هى والشاب فى ترتيـب المكان حول السريـر، وفى إعداد المـرأة، فقاما بتهذيب شعرها وتسريحه إلى أعلى وحملا بعيدًا قدحًا كان بجوارها. وقالا لها: «هناك زيارة لك»، فردت: «آه، نعم، نعم».

قدمتِ نفسى أخيرًا لها وأخبرتها، من أين أتيت، وعن من أريد أن أتحدثَ. الاسم الـذى ذكرته أثار دهشتها، وظلت تردده وهى تصيـح تقريبًا ولكـن ليس فى وجهى، ولكن فى وجـه الممرضيْن اللذيْن قاما بتحريك رأسها هنا وهناك ثم انصرفا.

أخذت المرأة تُفرِد بيدهـا الرقيقة ثنايا ملاءة السرير، ونظرت إلـىّ وكأننا نعرف بعض جيـدًا وقالت: «هل أستطيـع أن أقدم لك شيئًا؟».

أمعنـتُ التفكير، وبدا لـى أن هذا السؤال تنقصـه أشياء أخرى حوله، ولكن قلت سآخذ قدحًا مـن القهوة، فأشارت لى أن أقتربَ

منها، فهمستْ في أذني قائلة: «بعد قليل سيمرون بالشعير، فاذهبْ إلى غرفة التمريض واطلب منهم أن يعطوك قهوة حقيقية».

كانت هناك مع الشاب والمرأة فتاة أخرى. وقد أصبح من الصعب طلب قدح القهوة. كان الثلاثة يلتفُّون حول درج مكتب وكانوا ينظرون إلى ملف بداخله دون إخراجه من الدرج. كانوا يقرأون بصورة غيرة واضحة ويتناقشون. وعندما رأوني أغلقوا الملف والدرج. وقال الفتى: «كنا نعتقد أنها تحتضر، أما الآن فهي بخير». أشرت إلى ماكينة القهوة التي كانت توجد فوق الموقد المشتعل. تقدمت الممرّضة العجوز وقالت: «هذه القهوة لنا، ولكن سنعطي لك منها». أخرجت من العلبة فنجانًا، وأرتني إياه وكان يبدو جديدًا وملأته، ووقفت بالفنجان في يدها دون أن تعطيني إياه، وقالت: «الآن يجب أن تقول لنا هل كانت الأشعار التي كانت تلقيها السيدة حقيقية». سألتها ماذا تعني بكلمة «حقيقية». فردت قائلة: «أعني هل كتبتها هي ذاتها». لم يكن يبدو لي ذلك أنه فرض، ولكنني حكيت لهم ما أعرفه. نظر الثلاثة إليَّ باهتمام وأنا أرشف القهوة، وكأن وجودي هناك معهم، وهو بمثابة تأكيد على ذلك. إنه لأمر غريب فلم تكن لديّ الرغبة في البقاء هناك، ولم تكن لديّ الرغبة أيضًا في مغادرة المكان. ومع عودتي إلى غرفة المرأة،

كنت أفكر في إيجاد سبب للوقت الذى أضعته فى غرفة التمريض ، أما المرأة فربما أضاعت هذا الوقت بطريقة شخصية مختلفة تمامًا ، حيث كانت تفكر فى العبارة التى قالتها لى على الفور ، وبصوت رقيق ومحدد لدى جلوسى بجوارها . «كنت أجلس على مائدة صغيرة مع صديق لى ذكى جدًا ، قمة فى الذكاء ، وفجأة نهض شاب وفتاة كانا يجلسان على مائدة أخرى واقتربا منا . قالت الفتاة: «لقد سمعنا حديثكما ، وهو حديث يروق لنا . هل يمكن أن نجلس معكما؟» . وقدّم صديقها نفسه قائلاً: «روبرتو بازلن» . قال ذلك وهو ينحنى انحناءة تثير الضحك . وشرعنا نتحدث عن الأدب . عن الأدب العظيم بدءًا من الكتب القديمة إلى الكتب الحديثة» .

سألتها أىّ كتب .

نظرتْ حولها فى صمت ، ثم اقتربت منى بوجهها ، وقالت فى صوت خافت: «يجب أن نضع فى اعتبارنا الكتب التى تتميز بالآلام . هل تفهم ماذا أقصد؟» .

لم أكن متأكدًا مما تقصده ولم أرد بكلمة واحدة . صمتُّ دون أن أكترث بهذا التوقف أو بالوقت .

قالت المرأة: «الشاب والفتاة كانا يدرسان بعضهما . وأعتقد أنهما كانا يبحثان عن نقطة التقاء لتفادى الصدام . وعندما كانا

يتحدثـان ، كان كل واحد منهما يوجّه كلامـه للآخر ، دون النظر إلـيّ أو إلى الفتـاة بجـوارى . وكان كل تأكيد ينتهـى بنهاية غير مؤكدة ، ويصبح موضع تساؤل ، وكانـا يتحدثان عن أشياء كثيرة وكأنها قد حدثت بالفعل . الشيء الوحيد الذى كان يثير قلقهما هو أن تظهر مكانتك» .

قلت لها: «أظهر مكانتى . كيف؟» .

فكرتْ قليلاً ثم أجابت قائلة: «أى دون أن تبدو شخصية مهمة . وكأنهما يستطيعان الاستغناء عنا أو أننا لا نساوى شيئًا» .

تعلقت المـرأة بشيء أشبه باللجام المصنـوع من الشاش ، كان يبـدأ من عند أرجل السرير ، واعتدلت فى وضعها الجديد . حاولتُ أن أتجـه ببصرى نحو أى شـيء آخر بالغرفة ، ولكـن لم أر غير ستائر ذات ثنايا كانت تحجـب الرؤية عن مساحات داخلية متناهية الصغـر ، وعن منازل كاملة كانت تحيط بمخـدع المرأة . لمستنى المرأة برفق . استدرت نحوها ، فقالت «ألست واضحة بما يكفى؟» . أجبتهـا: «لا ، بل على العكس» . فأشارت بإشارة أكثر تعقيدًا قائلة: «ربما لا يهمك هذا الأمر . ما الذى تريد أن تعرفه عنه؟»

«لماذا لم يكتب» .

لقد اخترت الطريق الأكثر وضوحًا، وليحدث ما يحدث. اندهشت المرأة ولم تقل شيئًا. وسمعت فى ذلك الوقت تمتمة بلهاء، لا أدرى من أىّ غرفة فى الطابق. وكانت عبارة عن مقطع يتكرر بإصرار وبصورة واضحة. فى البداية كنت أسمع هذا المقطع دون وعى، وكأنه جزء من الأثاث. أما الآن فقد أصبح واضحًا ومجددًا ويصيب الهدف.

قالت المرأة: «لقد حققتْ قصائدى الشعرية نجاحًا كبيرًا فى هذه المدينة». وبعد برهة قالت: «إنى أحفظها عن ظهر قلب».

نظرت المرأة إلىّ وشردت أنا ببصرى بعيدًا. استدارت المرأة بعض الشىء، وتغيرت نبرة صوتها بصورة عنيفة قائلة: «سأفقد صبرى إن لم يحضروا لى القهوة».

خيّم الصمت على المكان. ثم شرعت تقول شيئًا بصوت خافت، وكانها تستبعد وجودى، ثم بدأ صوتها يعلو. كانت تتمتم بأبيات شعر بسيطة جدًا وقصيرة وربما تنطقها باللجهة، ولا شىء غير ذلك. لم أفلح فى تحديد كل ما كانت تقوله، وكنت أشعر، من جانب آخر، أننى سلبى ولم أكن أعرف ماذا كان يمكن أن أقوله فى النهاية.

كانت المرأة تلقى الشعر، وهى تنظر إلى سقف الحجرة، وكأنها تقرأ الشعر هناك بأعلى. وكانت بين الحين والآخر تواصل إلقاءها لأبيات الشعر، إلى أن تنتهى وقد بُح صوتها ثم تلتفت نحوى فأثنِى عليها قائلاً «جميلة». فتقول: «أود أن ألقِى عليكِ واحدة أخرى وهى قصيدة «الباستو».

ابتسمتُ وأشرت لها أنه سيكون من الأفضل لو شرحتها لى. ولكنها لم تفعل ذلك. استمعت إلى القصيدة الشعرية بالكامل وكانت أطول من سابقتها. ثم بدأت تشرحها فى رشاقة قائلة: «الباستو» معناه المتر. وكان أبى يحمله معه ليقيس به العرض والطول. «والباستو» فى هذه القصيدة يقصد به النظام الأخلاقى عند أبى. فقد كان أبى ينظر إلى الماء وهو يغلى، وهو يرتدى فى معصمه جهاز الكرونومتر (جهاز لقياس الزمن بدقة بالغة)، فإذا لم يغل الماء فى الوقت المحدد، كان أبى يتقدم باحتجاج لدى شركة الغاز. كان هو الوحيد الذى يفعل ذلك، ولكن لم يكن الكل يفهمه».

حضر الآن، مرة أخرى، الثلاثة الذين يعملون فى غرفة التمريض دون إحضار الشعير. أخرجت الكتاب الذى يحمل اسم المرأة على الغلاف. لمس الثلاثة الكتاب، ونظروا إليه ثم قالوا: «ها هو ذا!». أظهرت أيضًا الكتاب الآخر، كتاب المؤلف الأشقر،

والذى يتحدث فيه عن المـرأة، وأعطيته عبر المرأة للفتاة، وكان مفتوحًا على صفحة بذاتها.

وددتُ أن أعثر على الخيط مرة أخرى، وأن أقول شيئًا للمرأة التـى كانت تتابع مـرور الكتب من فوقها، وكأنهـا عصافير تحلق عاليًا. كنـت تقريبًا على وشك التحدث، ولكـن الفتاة شرعت تقرأ بصـوت عال: «فى أيـام السبت التى كنا نجتمع فيهـا، وكنا كثر، من أجل حضور الندوات فى منزل الشاعرة، كانت الغرفة الأكبر تفتح لنا أيضًا. كانت المقاعد الصغيرة تنقل أيضًا إلى الغرفة الكبيرة عندما كان «جوتّى» يقوم بقراءاته، وفى هذه الغرفة كانت توضع على الأرائك رسومات ولوحات الرسامين. وكانت حلقات السمر تُعقَـد وتنفض، ما بين الغرفتين، وفقًـا لموضوع الحديث، وكان الحضـور يجلسون فـى جماعات عندما كانت تعـزف الموسيقى. وكانـت هناك أيضًا برامج لأيام السبت تلك. كانت هى ذاتها تكتبها علـى الآلة الكاتبة وكانـوا يتركون لها هذه البرامـج على المائدة. فـى ذلك اليوم كان البرنامج يتضمـن شعراء من كل أنحاء العالم، بـدءًا مـن «هوميروس»، «سافـو»، أرينّـا، «أركيلوكو»، «أنا كريونتـى»، ثـم كان يأتـى بعد ذلك الشاعـر الصينى «بـو-كو-إى»، ثم شعراء أمريكا الزنوج، وشعراء فرنسا أمثال «فيلون»، «بودليـر»، «رمباو»، «وكوكتيـه»، وأخيـرًا الشاعر الروسى

«إزنين» . وفى لحظات التوقف كان «جوتّى» يجفف جبهته ويرفع خصلة شعره الأبيض المسدل كنبات المعلاق ، والذى كان موضع دلال وإعجاب . . .

جلست الفتاة فوق السرير ، كانت تقرأ بسرعة فائقة ، ربما كانت تفكر فى الانتهاء من قراءة الكتاب . أما الممرضة الأخرى والشاب ، فقد وقفا مستنديْن على عاتقيها . وظلت المرأة شاردة فوق سريرها وكانت تتجه ببصرها نحو شىء آخر .

كنت أود ألا أسمع شيئًا آخر ، وكنت أرغب فى مغادرة المكان ولكن كنت قلقًا من الرسميات . كان الأفضل بالنسبة لى ، أن أختفىَ من هذا المكان ، وأن أوجد مرة أخرى هناك تحت فى وسط المدينة ، بعيدًا عن التمتمة البعيدة القادمة من الرواق ، وبعيدًا عن هذه القراءة التى تسير على نفس الإيقاع . الآن ، فى المنزل ، ربما كان هناك سبت من نوع آخر ، فقد كان يأتى النحاتون وهم يحملون أعمالهم المنحوتة ، والموسيقيون بآلاتهم ، كان الجميع يتحدثون ويضحكون ويتناولون أقداح الشاى ، وكانوا يستمعون إلى نثر غير منشور لشعراء من «تريستة» ومن فرنسا باللغة الفرنسية ، كان «جوتّى» يلقى ويعلق ويجفف جبهته ، ودخل أشخاص لا أعرفهم ووضعوا لوحاتهم فى كل مكان تقريبًا ، وظهر مرة

أخرى «جوتّى» وهو يقرأ لـ «سابا»، و«أنُجريتى»، و«مونتالى» «وكوازيمـودو»، وأصبح شعره المدلّى من رأسه، وكأنه ضباب معتـم بـه ألياف تعـجّ بحبّات من الثلـج مثل نبـات المعلاق، مثل الصقيع الذى بدأ يحل بهذه الحجرة أو على الأقل كما يبدو لى.

نهضت فجأة، أو مـن الأفضل، أدركتُ أننى نحجت فى ذلك. أخبرتهـم أننى سأرحـل فتوقفتْ القراءةُ فجـأة. أشارت الممرضة العجـوز إلى الكتاب وقالت «اتركه مـن فضلك لنا، فهو يروقنا». أجبـت: «للأسف إنـه أمر مستحيـل»، واستعـدت الكتاب بحركة سريعة إلى حد ما.

كانت المرأة فى مخدعها تنظر إلىّ وهى خالية البال.

قالت لى: «عانقنى».

استغرقـتُ قليلا من الوقت لأقطع المسافة التى تحولت فجأة إلى قصيرة من «حضرتك» إلى «أنت».

وفى المـدة التى استغرقتها من المستشفـى إلى المحطة، تحول لـون السمـاء إلى الرمادى. هل نحـن فى النمسا؟ ربمـا أجد أيضًا التـرام الأبيضـ والأزرق، والـذى ينطلق بانتظام مـن الميدان

الصغير وحولـه أحواض الزهـور، وكأننا أمـام ماكيت للمصمم «ماركليـن»، وبـدت حافة الرصيف من دون أكـوام التراب اللا نهائيـة التى عادة ما تتجمّع هناك، وأحـواض الزهـور وقد برزت بوضـــوح فوق الرصيف مـن دون أن تشوبها تشققات أو تهاجمها الأعشاب علـى امتداد الرصيف. سِرْت بين تلـك الحواف السفلى المنظّفـة بعنايـة، والتى تدفع الميدان وكأنـه ينزلق من فوق حذاء لامع. وتدفع السلافين بحقائبهم الكثيرة وربما تدفعنى أنا أيضًا.

وبداخل الحافلة بذلت مجهودًا مضنيًا مع آلة العملات المعدنية، والتـى كانت ترفض استقبال العملة المعدنية التى معى. كانت تقف خلفى امـرأة، فقالت لى اشتـرِ تذكرة من أحد الـركاب وانْصعت لكلامهـا. وعندما وضعت التذكـرة داخل جيبـى، والتى جعلتنى أنتظـم مع السلوك المدنى العام، قالت المـرأة: «من يدرِ منذ متى لـم يستقل ذلك الرجل حافلة؟». استـدرت لأنظر إليها. وارتجفت عندما فكرت فى أن رغبتهـا الصغيرة القابعة فى ذهنها قد تصطدم وتتدمر بسبــب الاضطراب داخـل الحافلة. وعندمـا وصلت إلى المحطـة، كان الظـلام يعم المـكان تقريبًـا. ودخلت نفـس البار الذى دخلته فى الصبـاح، وجلست على مائدة، أستطيع من خلال الزجاج المحيط بها أن أتابع حركة القطار عند الرحيل.

نظـرتُ إلى الفتـاة الشقـراء النحيلـة، والتى بدأت تنظـر إلىّ بنظـرات غريبة. أخرجـت الفتاة مشطًا، وفـى كل مرة تقف فيها خلفى كانت تمشّط شعرها المسترسل وتضحك بملء فيها.

وفى النهاية، تركت الفتاة المشط معلقًا على جانب من شعرها، وقالت بصوت عالٍ: «لننتهـى معًا من تناول الجعّة الخاصة بى». تملّكتنـى الحيرة، أيضًـا لوجود الأفارقة علـى الموائد المجاورة، وكانوا يعرفـون بوضوح كل شـىء، والآن ينظرون فى فضول إلـى ما يمكـن أن يحدث. لم أرفـع عينىّ قط إلا عندمـا أُعلن عن رحيل القطار.

جلسـتُ فى شرفة القطـار السريع القديم ما بيـن مقاعد صغيرة متهالكة ومدن مرسومـة بالفحم على لوحات مصفرّة من القماش. إن علـم الديناميكية الهوائية، فى ذلك العصر، ربما كان فى بدايته محدبًا، وليس حاد الزاوية، كمـا هى الحال الآن. ضغطت بأنفى علـى زجاج النافذة حتى أتجنّب انعكاسـ الأضواء بداخل القطار، فقطـار «الست بيللو» هو الوحيد الذى يمكن من خلاله رؤية السكة الحديدية، كما يراها قائد القطار فى قمرته التى توجد بأعلى. مكثتُ أشاهد الظلام الذى كان يمر مسرعًا.

ومرت فترة من الوقت، شرعت بعدها أبحث فى كتاب المؤلف الأشقر، عن الصفحات التى من أجلها اشتريته: «... أخذت أول انطباع عن الطريقة التى نمّى بها هذا الشاب ثقافته يوم أن ذهبت لزيارته فى منزله أثناء فترة مرضه القصيرة».

كان «بازلن» يرقد على فراشه فى استرخاء فوق الوسائد، وكان على الكومودينو بجواره يوجد صف مرتفع من الكتب، وعلى جانبىّ السرير يوجد صفان آخران من الكتب. فقد كان غارقًا فى الكتب. وقد اعترف لى بعد ذلك بأنه عندما لم يكن مريضًا، كان يقرأ الكتب فى سعادة وهو مستلقٍ فوق السرير... وفى سن الثامنة عشرة كان يعرف أكثر منا جميعًا شبابًا وشيوخًا... كان لديه حدس خاص فى اكتشاف مؤلفين غير معروفين جيدًا، ثم بعد فترة قليلة يصبحون ملء السمع والبصر... وفى مدينة «تريستة» كان هو من أوائل، بل هو أول من استوردهم... وكان يقال عنها «ثقافة فوضوية»، وكنت أراها أنا بالأحرى «هواية راقية». فمثل هذا الشخص، فى مدن أخرى، كان يمكن أن يخلق حوله بيئة ثقافية، حياة أشبه بحياة دار النشر... ولكن فى «تريستة»، والآن أيضًا وقد وضعت الحرب أوزارها، فإن الأمور تختلف تمامًا...

كنــت أتخطى السطــور ، وأعيد قــراءة نفس العبــارة دون أن أدرك ذلــك. لم أكن أفلح فى تمييز إيقاع الكلمات عن إيقاع القطار وعن إيقاع تنفسّى إلى أن بلغ الإجهاد بى مبلغًا كبيرًا ، فأطبقت فمى ورحت أغط فى سُباتٍ عميق.

الفصل الثانى

كان الأمر يختلف عن المرة الأولى. كنت أعرف عددا من الشوارع والمطاعم وبعض المكتبات وواحدا من المستشفيات. ولكنى كنت أطمئن إلى الطريق المحاذى للبحر، وفى اللحظة المناسبة، اتجهت نحو اليسار لأدخل المدينة؛ واستدرتُ باستقامة وكأننى جندى فى سَرِيّة عسكرية. وبوجه عام كنت أستطيع أن أتصور أنه كانت هناك مرة أخرى، وأن أطوِىَ صفحة الماضى وأضيف وأقارن. كل هذا لم يكن يعنى الكثير، ولكن لم يكن بالقليل.

نزلت من القطار، كنت ما زلت بالمحطة، وبحثت عن رقم فى دليل التليفون، ولكنى لم أعثر عليه. فقررت هكذا أن أذهب عند بائع الكتب، والذى يشبه فى هيئته بائع الأسلحة، فقد كان من قبل بداية طيبة لى. كان طابور انتظار سيارات التاكسى طويلا للغاية، لذا كان من الأفضل الذهاب لمحطة الأتوبيس. كانت لافتة المحطة تشير إلى ستة أرقام، إحداها سيذهب بالتأكيد إلى الحى اليهودى. مر الوقت ولم يأتِ أى أتوبيس. هل هذا معقول؟ داخل المحطة تقريبًا، ومحطة الأتوبيس الرئيسية، وتوجد ستة أرقام، ولا تمر عربة واحدة للنقل العام منذ عشر دقائق؟ ورغم هذا فإن الحافلات

موجودة: خاليـة ومغلقة داخل الميدان، حيـث أدركت أيضًا أننى الوحيد الذى يقف فى انتظار أتوبيس.

عدتُ مرة أخـرى إلى طابور سيـارات التاكسى مثل متزحلق علـى الجليد يقف فى انتظـار التليفريك. وقفتُ فـى نهاية الطابور خلف سيـدات شرقيات فى عمـر الشباب، ربما كـن من تايلاند. كـن يرتدين ملابس على الطراز الأوربـى، ولكنها مصنوعة من الحرير الخفيـف: ماذا سيفعلون هنا فى «تريستة؟» وماذا سيفعلون فـى هذا البـرد؟ إن إضراب الحافلات وطابور سيـارات التاكسى أطاحا بالعزيمة التى كانت تتملّكنى عندما نزلتُ من القطار، بعد أن خلـدت إلى النوم لقرابة نصف ساعـة فى آخر مرحلة من الرحلة. نظرت إلـى الأشخاصـ الذين يقفون مـن قبل، وأخـذت أحسب عددهم مع عدد التاكسيات المتلاحقة ثم سئمت ذلك.

نزلـت من جديد عبر الطابور، وعندمـا تخطيت الأول انتفض غاضبًـا عندمـا رآنى أتجاوزه بخطـوة، فى اتجـاه مخالف، نحو سيارة التاكسى التى كانت تقترب، وكان عليه أن يستقلّها.

الآن أصبـح أمرًا مريحًا أن أذهب عند بائع الكتب، رغم ذهابى إليه سيرًا على الأقدام لمسافة طويلة فى هذا الجو البارد.

يبدو البائع دائمًا وكأنــه لا يعرف شيئًا، أو أنه ليس عنده كتب؛ كان يتحدث بفتور وكأن كلماته معروضة فوق المائدة، وهو يقف مستعدًا ليضعها فى مكانها.

كان بالمكتبة زبائن كثيرون فى ذلك اليوم، وكان البائع منهمكًا معهم. انتظـرتُ إلى أن غادر الزبائن المكتبـة دون أن أنظر إلى الكتــب. ثم انتقيت سـؤالاً مختصرًا للغاية، «مـن لا يزال على قيد الحيـاة؟»، هذا السـؤال لم أكن على قدر مـن الشجاعة لأوَجّهه له فــى المرة السابقة، أخرج الرجـل اسمين ورفع كتفيه لأعلى وقال «حسنًــا»... سألتــه إذا كان يعرف عنوان أحــد الاسمين. أطبق شفتيــه وتنهّد قائــلاً: «ربما يكون فى منـزل أحد أقربائــه أو ربما يعرف أعضاء الجالية الإسرائيلية عنه شيئًا، من يدرى...».

عبــرت المدينة فى مسيرة متعرجة وفقًــا لإرشادات مختلفة فى كل مــرة. كان البرد قارصًا بالفعل. وعند بوابة الجالية كان هناك هاتــف ذو شاشــة. وعندما ضربت الجرس أضــىء نور، فحكيت فــى الهاتف ماذا كنت أريد. كان الرد بــأن أتجه قليلاً نحو اليمين. ففعلت وبقيت فــى مكانى هكذا لمدة دقيقة تقريبًــا، دون أن يحدث شىء. ثم انطفأ النور وفُتحت البوابة.

عندمـا صعدت إلى أعلى وجدت بابًا مفتوحًا، ورواقًا طويلا به حجرات كلها مغلقة، عدا صالة الانتظار فقد كانت مضاءة، ومكتبة كبيرة ذات نوافـذ حديدية. وكان يجلس على أحـد المقعدين شاب بديـن بعض الشـيء يرتدى قبعة علـى رأسه. ومع هـذا السكون التـام، كان أمرًا غريبًا أن أسمعه يحدث ضجيجًا بإيقاع ثابت دون أن يتحدث أو أن يرفع بصره عن أطراف الكتب المشقّقة فيما وراء الشبكة المعدنية.

وعندمـا خرجـتْ السكرتيرة من المكتـب، وسألته مَن يكون، نهـض واقفًا على قدميـه وقال: «إسرائيلـى، إسرائيلى يا سيدتى» قال ذلك بصوت قوىّ، كما لو كان من الجلى ألا يكون لأحد سواه الحـق فى الوجود فى هـذه الغرفة. لمست المـرأة جبْهتها وقالت: «بالتأكيـد! الآن تذكـرت». أما عـن دورى أنا، فهـى بالتأكيد لا تستطيـع أن تتذكر. قالت: «فى الواقع، كان يبدو لى أن حضرتك لسـت من هـذه المدينة». وحصلـتُ على العنوان ومعـه النصائح والإرشادات.

دخلتُ أول كابينة واتصلـت بالرقم الذى أعطوه لى، فردَّ علىّ صـوت لشخص عجـوز، كانت سيـدة، وكان بصوتها خلل يسير أرغمنـى على أن أستمع لها فى هـدوء وحذر. قالت السيدة: «لكن

لماذا تبحث عنه؟»، وهنا واجهتنى مشكلة: وهى؛ أن أنجح فى أن أشرح لها كل شىء فى موقف مثل هذا بأقل عدد من الكلمات.

كان يجب علىّ أن ألغىَ استعمال ألفاظ مثل« ينبغى علىّ» أو «أنا هنا»، وأن أنزع الأفعال المساعدة، وأن ألجأ إلى الأسماء البسيطة - أو إلى الاسم فقط - تاركًا لها أن تتخيّل العلاقات بينها. وظللتُ أنزع فى الكلمات إلى أن استقرت الأمور من تلقاء ذاتها، أو لاستنادها على شىء آخر، ولكن الأمر لم يكن ليأتى معى تلقائيًا.

ردت السيدة: «ابحث عنه فى المقهى». وبذلت مجهودًا لإعطائى معلومات عن عنوان المقهى، كانت هناك سلسلة طويلة من الأسئلة مثل: «هل تعرف أين هى؟»، وسلسلة أخرى من إجابتى بـ «لا». ثم بعد ذلك مجموعة الإيضاحات «مثل أوّل يمين» وفى آخر الطريق على اليسار . ثم قالت السيدة: «إذا لم تجده هناك، لكن سترى أنه هناك، لأن المقهى الآخر مُغلَق اليوم، أعِدْ الاتصال بى بعد ساعة».

كان يجلس بالمقهى ثلاثة أشخاص على الأقل. كان يبدو من مظهرهم العام أن واحدًا منهم يبدو أنه الشخص الذى أبحث عنه، لذا سألته، ولكن لم يكن هو. كانت هناك موائد قليلة وكان

المقهى هادئًـا بصورة غير معتادة. كان الرجلان الآخران يقرآن الجرائـد، وكانت كل جريدة مثبّتة على حامل من الخشب. لم أكن أرغب فـي إزعاجهما، ولا سيما بسؤال مثير للخوف مثل: هل هو حضرتـك؟ رأيت أنه مـن الأفضل أن أسـال «البارمان»، ولكن للأسـف لم يكن يعرف شيئًا. يا للخسارة، إنـه بالتأكيد هنا. وعلى الرغـم من اقتناعى بذلـك، ما إن انتهيت من تنـاوُل قدح القهوة، حتى نهضت من فوق مقعدى وغادرت المكان.

أعدت الاتصال مـرة أخرى، وفى وقت لاحق، بنفس الرقم. رد هـو علىّ، لم يـرد الاستماع إلى تفسيـر، وأعطنى موعدًا فى مقهـى آخر خلال ساعة. كان ذلك بمثابة خطوة إلى الأمام، وهى القدرة على تميّز الزمن والتفكير فى أن هناك «ساعة ميتة». وكأنه مـن اللا تحديد الذى ليس بـه تبكير أو تأخير، ظهرت أخيرًا لحظة توقف مع كل ما يتبع ذلك من أمور.

سرتُ على مَهَلٍ فى اتجاه كنت أراه يصل بى إلى الموعد، دون أن أختار الطريق. كانت تهب رياح محمّلة بتراب رمادى اللون. ركب رجـل عجوز سيـارة قديمة ماركة «تاونوس» وجلس فى المكان المخصص للركاب وترك ساقيه على الرصيف، ثم استدار بربع جسده ووضع ساقيه داخل السيارة.

أغلق الشـاب مرة أخرى باب السيارة، ولـفّ حولها ثم جلس أمـام عجلـة القيادة. فكّـرت فى الثـروة التى يمكـن أن تنتقل من شخص لآخر. وأعنى هنا الميراث الذى يُعد فى نهاية الأمر بمثابة الشهادة الوحيدة الحية على النَّسب. وفكّرت فى السيارات القديمة: مـرة أخرى السيارة «البـكار» الرائعة المكشوفـة بلونها الأزرق الداكـن، وغطائهـا الأبيض المصنوع من النسيـج تعلوه طبقة من التراب الساكن، كما هي الحال فى السيارات التى تظل لفترة طويلة واقفة فى مكانها. أو تلك السيارة «أوبل» بطلائها السميك ومقدمتها اللامعة. هل العنايـة بالسيارات ونوعية القماش الذى يرتديه كبار السن هنا، هل هى صور متساوية للحفاظ على الأشياء.

عندمـا حددت المقهى كانـت تتبقّى بضع دقائـق على الموعد. واصلـت السيْـر حتى وصلت إلـى شارع مرتفـع، استدرت نحو ناصيته، وارتكنت بظهرى على الحائط. وحاولت أن أستمتع بقدر مـن الشمس. لا توجد فى ذهنى فكرة محـددة إذا ما طرحت جانبًا فضولى المتعلق بالرجل الذى سوف أراه بعد قليل، وأسلوبه الذى سوف يكون، بـلا أدنى شك، مختلفًا عن الـذى أتصوره. تابعت ببصرى السيارات التـى كانت تقترب من التقاطع، وكررت ذلك عشـرات المرات. إنـه لأمر غريب حقًا: فالمسافـات والمساحات المخصصة للقيادة متساوية للجميع، وكذلك التحركات، ولكن كل

فـرد يمر من هنا أمامــى يتصرف بصورة تبدو لــى غير عادية ثم يذهب بعيدًا.

لقد تعرفـت إليه فورًا من بين الأشخاصـ الذين كانوا يجلسون علــى المائدة: كان هـو الجالس فى البار الآخر فــى المؤخرة على اليمين، ولو كنت نظرتُ إليه بصورة أقل سرعة، ولو أننى طبقتُ نظام الاحتمالات بصورة عكس المعتـادة، لاستطعت أن أتعرف إليـه. الآن يجلس فى ركن من هـذا المقهى الذى يبـدو فى حالة جيـدة، وكأنه أعيد بناؤه؛ كان يجلس بجوار الحائط تحت مرآة فى نهاية المقهى.

نهض علــى قدميه وابتسم قائلاً: «هنا بالنسبة لى أشبه بالمكتب. بـل سوف تأتى أيضًا سيدة شابـة لأعطيها بعض الأوراق. ولكنها مسألة لحظة واحدة، هذا لن يضايقك، أليس كذلك؟».

قلـت: «لا، بالتأكيد». كان الرجل يشبـه إلى حد كبير «هنرى ميلر»، غير أن عينيه كانت تتجه إلى أعلى.

شرعــتُ أحكى لــه الموقف، وكان هو يفكر فيمـا أقوله، وكان تارة يشيـر بالموافقة وتارة أخرى يظـل مرتابًا. كانت التجاعيد، أسفـل قفاه الحلق، تظهر مرة وتختفى مرة أخرى فى المرآة، وفقًا

لحركـة رأسه. فى النهاية ثنَـى رقبته قليلاً ونظـر بالخارج، فيما وراء الزجاج. قال لـى: «كان يصارع، لم يكن من أولئك الذين يتنازلون عن المناصب العليا، ولكن كان يحاول أن يأخذ شيئا من الحياة، ولكن أعتقد أن الأمر انتهى بخيبة أمل».

لكـن ربما ما أقوله أمر شخصى جـدًا. فأنا للأسف رجل محبط إلى حد كبير، آمالى القليلة وربما وصفته بأشياء خاصة بى».

أشـار إلى النادل؛ وأمره فـى ودٍّ كبير بالحضور للحظة، وهى اللحظة التى استغرقتها فى اختيار عصير عنب، وكان من الواضح أنه كان هناك اثنان وأنا. ثم واصل حديثه قائلاً: «كان يبدو لى أن بداخله حزنًا عميقًا، يصل إلى حد اليأس تقريبًا فى بعض الأحيان. كان الآخـرون يقولون عنه إنه رجل معقّـد وعصبى، وكان ذلك يسبـب له صعوبات، ولكن كان بداخله شىء إبيقورى فى صورته الطيبة، وكان يعرف كيف يستمتع بالأشياء».

الآن تجـول بخاطـرى بعض خطاباتـه، وكانت هنـاك جملة عثرت عليها فـى مواقف عديدة، كانت تقـول: «إننى أستمتع قدر العالم ونصفـه». فى البداية شعرتُ بإحساس غريبٍ وكأنها عبارة رائعة للغاية ومقصودة وقاطعـة؛ أو ربما كان يضايقنى بالفعل أن

أجدهـا تتكرر أمـام أشخاص مختلفين ، وفى سنـوات مختلفة مثلها مثل العبارات التى نثق بشدة فى نجاحها . وقد بذلت جهدًا فى فهمها إلى أن أصبحت عبارة عادية ، ولم تعد تبرز عن بقية العبارات .

على أية حـال أفضّل ألا أتحدث عن ذلـك . نظرتُ إلى النادل وهو يضع المشروبات على المائدة بعناية فائقة وبابتسامة عريضة ، وقـد كان من المحيّر أن أعتقد أن هذه المعاملة الحسنة الزائدة على الحد تجاهى يرجع سببها إلى وجود ضيفى هذا .

قال لـى : «ذات مرة ذهبت لزيارته فى روما . لم أكن قد رأيته منـذ عشر سنـوات . كان وجهه قد تغير تمامًا . يبـدو لى أننى أراه ، أراه جيدًا هـذا الوجه . لقد تأثرت كثيرًا وبصورة مؤلمة ، لأننى كنت أحبه جدًا ولم أر وجهه هكذا من قبل» .

قلـت : «ربما كان السبب هو وجوده أمام شخص من تريستة» . قلت ذلك وأنا أتمنى أن ما قلته لا يكون له أثر سيئ .

رد دون أدنـى تأثـر بما قلتـه : «بالفعل رحل مـن هنا بصورة قاطعـة» . وعـاد بشكل رسمى مـرة واحدة فقط ليدفـن أمه . لكنه كان ودودًا جـدًا معـى ، وكنا نتقابـل أيضًا فى ميلانـو قبل اندلاع الحـرب . أتذكر نشاطه الكبير حتـى وإن كان يبذل مجهودًا عندما

كان يتحدث. كان يروقه التناقضـ والنكتة مثل كل يهودى مشابه لــه. كان إلى حد كبير غير مبالٍ سواء باليهودية أو باللوثرية، لكن كان بداخلــه شــىء، ليس اليهـودى الأصلــى، لا: ولا بداخلى أنا أيضًــا، أو بداخل الآخريــن، إنه شىء آخر مختلــف عن اليهودية القديمة، هو بالأحرى نزعة نفسيةٍ، وأسلوب نتخذه لنكون نقادًا أو اصطفائيين، وحبه للنكتة، وهذه الأخيرة لديه منها بعض الشىء. وربما أيضًا الشعور بالغربة أو الإحساس بالمواطنة العالمية.

كان حفيــف الجرائد وقرقعة أقداح القهــوة، أو صوت تحريك المقاعد يغطــى حالة السكون المريبة للغايــة. كان الموقف يتطلب ملاحظــة منهجيــة هنا، بيــن الرجــال العجائز، والانتبــاه لأولى حــالات الاستسلام، إلــى ياقة القميص التى أصبحــت فجأة واسعة قدر إصبعين، وإلى حلاقة الذقن المهملة إلى أن نصل إلى لا شىء، الشــىء المفزع، وأعنى به نظرات الكل، وهى ليست موجّهة نحو الشخصــ المراد، وإنمــا هائمة حوله وكأنه صــورة غير واضحة تقف فى الوسط.

انتظــرت حتى ينتهــى من تنــاول قهوته، وهو يجلســ ورأسه تميــل إلى الخلف، نظــرت إلى الخلفية ذات اللــون البيج الموحد، والتــى تبــرز اللــون الأســود لأذرع ولأرجــل المقاعــد الخشبية

المقوّسة والمنقوشة الموجودة هنا بالمكان. قال لي: «لقد كتب لي خطابًا يحتوى على قائمة بالموتى الذين سقطوا فى نفس سنّه الحرجة، وهو اثنان وأربعون عامًا. كان يتحدث عن «إسبينوزا وفان جوخ»، ولكن لا أعتقد أنه تعرّض لأزمة فى تلك الفترة. ربما حدث تطور . . . ربما كان يعتقد فى فترة شبابه أنه يستطيع التغير، فلم يكن مدركًا للموقف برمته. ثم نضج بعد ذلك، ربما نتيجة لصدمة نفسية، وعلى أية حال فقد اضطر أن يهجر بعض الأوهام. وعمومًا كان يعيش للاستمتاع بالقيام بتجارب، فمنذ أن كان شابًا، لم يحدد هدفًا لحياته، وإنما كان يقول هو ذاته؛ إن هدفه هو الاستمتاع بالحياة. والاستمتاع بالحياة ليس معناه أن نكون سعداء لأننا أحياء. وهذا الاستمتاع الذى كان فى بدايته تلقائيًا حتى نقطة معينة ربما أصبح شيئًا تقليديًا . . . هذه هى انطباعاتى الحالية. وربما بعد عشر دقائق سيكون لدىّ انطباع مختلف».

نظرتُ إليه ولم أفلح فى فهْم ما إذا كانت هذه الطريقة فى تخفيف حدة صوته، والتى يمارسها نتيجة لكبر سنّه، هى نوع من الحذر أو أنها جزء من النبرة الحزينة المعتدلة والمفعمة بالحيوية التى يتحدث بها عن الأشياء. قلت له: «كيف كان يتقبّل مسألة عدم الكتابة، أقصد مسألة الكتابة فى إطار عائلى؟»

رفع كتفيْه وقال: «كان يريد أن يوضّح أن الأمر لا يعنيه. وفى أحيان كثيرة كان يردد قائلاً: من الأفضل ألا يوجد الكُتّاب أصحاب المواهب المحددة، وربما كان هو نفسه يشعر أنه ليس فى طليعة الكُتّاب المتميزين. وربما، كما يقولون، لم ينشر أعماله لأنه لم يكن يهتم بذلك، وربما كان ذلك أمرًا حقيقيًا، وربما كان يكتب من أجل ذاته، وكانت هناك بعد ذلك فترات كان يرغب فيها فى نشر مؤلفاته، ولكن ربما اعتقد فى النهاية أن أعماله غير جديرة فلم يكترث بالأمر. ولا أعرف لماذا لم يفعل أفضل من ذلك. ولكن كنا نتوقع جميعًا أن يقدم عملاً جيدًا . . .».

ربما سرحت قليلاً لأننى تلقيْت سؤاله؛ «وما فكرة حضرتك؟»، وكأنه متكرر. أو الحق؛ أننى لم أكن شارد الذهن ولكن الإشارات الخارجية لشخص أو موقف تتغلب على ترتيب الكلمات. فى الوهلة الأولى تبدو أنها تحتويها ثم تتخطاها ثم تجعل الاستماع ينحصر إلى مجرد إحساس مبهم بالسماع. قلت له: «نعم، ها هو ذا . . .»، وودت أن أرد بشىء يتعلق بالكتابة، أو بتحطّم السفينة الذى ورد فى قصة «قبطان الطريق الطويل»، حيث إن الأمريْن كان يوجد بينهما تشابه كبير. ولكن الأمر كان يبدو مبهما. وفى النهاية بدأت أتحدث عن «الصعوبة». قاطعنى قائلاً: «كانت لديه

صعوبة فى الترتيب والتنظيم. وأعتقد أننى لم أسأله قط: هل عندك شىء تنشره؟ لِمَ لا تنشر؟، فهذه أسئلة لا توجّه، ومن الفظيع أن نسأل من ليس لديه شىء يقوله «ماذا تعد الآن؟». ولكن كنت أعرف أنه كان يكتب، وأن ما يكتبه كان دائمًا شيئًا غير مكتمل. كنت أرى أن عليه أن يتوجه نحو الأشياء الرئيسية أكثر من الأمور الأصلية أو الشيّقة. إضافة إلى أنه كان عليه أن يقرأ بتعمّق أكثر أعمال «هوميروس» و«دانتى» أو على الأقل «كافكا» و«دوبلن» أليس كذلك؟ كنت أرى أنه كان عليه أن يبحث داخل ذاته. كانت لديه أشياء ولكن كان لا يُلقِى لها بالاً. فإن لم يكن الشىء جديدًا وأصيلاً بما يكفى، فلا قيمة له فى رأيه. وربما كان ذلك مشكلة».

فكرت قليلاً ثم أجبت قائلاً: «نعم ربما الأمر كذلك. كان يقول إن القيمة الوحيدة تكمن فى المرة الأولى». كان يقول أيضًا: «لا يمكن كتابة كتب، أنا أكتب فقط ملاحظات فى نهاية الصفحة». توجد فقط جملتان لا أُفلِحُ فى وضعهما معًا. لا أعرف، فهما بالنسبة للماضى متلاحمتان تمامًا. لكن بالنسبة للعصر الذى عاش فيه، وبالنسبة لما كان يستطيع أن يقوم به، بعد كل . . . عمومًا، من الصعب أن تكون هناك «مرة أولى» إذا كان الأمر بوجه عام لم يعد ممكنًا».

نظـر إلىّ دون أن يتكلم. ابتسمـتُ وقلتُ فى نبرة أخرى: «هل كان يخشــى التفاهة؟». رد قائــلاً: «أرى أن الخــوف من التفاهة يجعـل الكاتب يخاطـر كثيرًا. وحقًـا كانت لديه بعضـ المخاوف مـن التفاهــة، وهو شــاب أكثر منها وهـو ناضج. ليـس نوعًا من الاستعلاء. ولكن كانـت عقبة شديدة تعترضه فى كل طريق عام. وهذا ما أراه أنا من وجهة نظرى كواحد من الحرس القديم. كانت تكمن هنا نقطة الاختلاف بينى وبينه وكنت أقول له ذلك».

ظـل هكـذا شاخص البصـر على رخـام المائـدة، حيث كانت البصمـات علـى الأكواب تعطـى الإحساس بالحصـار بصورة واقعية.

وواصـل حديثه قائــلاً: «وتأتــى بعد ذلـك القـراءة باحتراف للناشريـن مثلمـا كان يفعـل هو ... اسمـع حضرتـك، رغم قلة إمكاناتى، فإنه عندما حققت هنا شهرة نسبية تلقيت كتبًا كثيرة لم أكن أتلقاهـا من قبل. كل هذه الكتب كانت تقلل من عزيمتى فى الكتابة. ولم أكن أكتب شيئًا فى ذلك الوقت، وكنت أهتم فقط بالشىء القليل الـذى كنت قد كتبته، وهو أيضًا كان أمـرًا شاقًا علىّ. ولكن كانت جميلة أيضًـا، ولكن بالفعل كثيرة، وكنت أقـول لنفسى: لكن ماذا سأضيف أنا إليها من الكتب؟ ربما حدث معه مثل ذلك أو على الأقل فى فترة ما».

نهض وهـو ينهِي عبارته، كأنه كان يضـع باب المقهى نصب عينيه وقال: «ها قد حضرت هذه السيدة . . .».

استـدرتُ. ونظـرتُ إلـى المرأة التـي كانت تمـر من خلال الموائـد، وهى تبتسـم. لم تكن شابـة كما قال هـو، ولكنها كانت جميلة، أو كان جميلاً رداؤهـا. كانت ترتدى فى يديها قفازًا مُغلَّفًا بـزرار عند المِعْصَم، لـم تخلعه حتى فى لحظـة التعارف. تبادلا بعضـ الوريقات وتحدثا بإشارات سريعـة، ونظرتُ أنا إلى جهة أخرى. طلب منها أن تتنـاول شيئًا «معنا»، فردت قائلة: «الوقت متأخـر». وقالت لى، وهـى تحيينى بوجهٍ مشـرقٍ: «تهانيًا». لم أكـن أعرف جيدًا إلى ما تشير، أو ربمـا السبب فى ذلك هو؛ حالة الكسـل التى حلّت بى فى ذلك الصباح. ولم يسعنى الوقت حتى فى أن أرد عليها كما يجب.

وعندمـا جلسنا من جديد، استأنف هو حديثه دون أن يعلّق على المـرأة ودون أن يبحث عن الكلمات: «لا ينبغى أن تعتقد أنه كانت لديـه صرامة زائدة علـى الحد، أو حمى الإتقـان، وأنه كان غير مسرور، وأنه كان سيعاود الكتابة دائمًا. وإنما كانت الصرامة فى عـدم رغبته فى الهَجْـر، وفى تقييم ألمه مـن دون تواضع، وفى إرادة الانفصـال والحكم. وهذا هـو انطباعى بالتأكيد: لكن لو كان

قـد تقبّل ذاته أكثـر ، وقلل من الحكم عليها ، ولـو كان قد شعر بأن الصعوبات لم تجعله ضئيلاً ، لكان استطاع أن يعبر عنها . والبعض ينفى ذلك ، ويقولون إنـه قد حقق ذاته ، كما كان يريد ، وإذا كانت هناك أشياء لم يقم بها فإن ذلك لأنها لم تكن تستهويه» .

قلـت : «لا أعـرف . لقـد قرأت ذات مـرة أن «الكتابـة لم تكن تستهويـه» ، ومرة أخرى أنه كان «أبعد من الكتاب» . ولقد فكرت فـى المساحة التى توجد بين الأمريـن ، وفى المعاناة التى تبذَلُ فى كل مـرة فى نقل كل شىء إلى هنـا أو إلى هناك . ووسط كل هذا ، ربمـا يوجد كاتب بلا كتب ، من يدرِ كم يوجـد منهم ، الآن أيضًا ، حتى هذه اللحظـة . لكنه كتب بصورة مستتـرة كمًّا يكفى لأن نفهم منـه أنه لم يكتـب . ولهذا السبـب فإنه هناك فى تلـك البؤرة . وقد قـرأت أيضًا أن تلك البؤرة لا توجد ، إنما هـو الفراغ وأحيانًا كان يبـدو لى أنـه لا يوجد شىء أقـوى من الفراغ أو العـدم ، إنه يحل كل مشكلـة ويهذّبها ويجد لهـا مبرراتها . وإذا مـا صوّرنا الفراغ بالنسبـة للإحساس ، فسنجده شيئًا واضحًا مثل الفيضان أو الغروب أو النهـر . . . وفى بعض الأحيان أرغـب فى أن أكتشف أنه حيثما يوجـد الفراغ والمعاناة من الفراغ فـإن الأمر ينتهى به إلى العثور على الرضا . . .» .

انسحب بمقعده إلى الخلف بعيدًا عن المائدة، وارتكن على الحائط فى حذر. ربما انتقى من بين ما قلته الجوانب المفيدة. ثم رد قائلاً: «اسمع، أنا لا أملك أن أقول لك، إذا ما كانت توجد إمكانية الذهاب فيما وراء الكتاب. ربما يكون هو قد بلغ ذلك. فأنا على سبيل المثال، قد كتبت هذا القليل الذى كتبته هكذا، لأننى أتيحت لىَ الفرصة، وأتصور أننى حتى، وإن لم أكن قد فعلت ذلك، لما ندمت كثيرًا. يمكن أن يحدث أيضًا هذا، يمكن أن تكون هناك نقطة يكون فيها المرء، ليس مثل الثعلب والعنب، ولكن يقول فيها صراحةً: لا يوجد هدف فى أن أكتب كتبًا، لقد قمت بأفضل ما عندى، لقد عملت أشياء حققت لى الرضا الكامل، وهذه الكتب سأهجرها. بالفعل كثيرون من بيئتى، اعتقد أنى أقلَّ من الآخرين، كانت لهم، على أية حال رؤية خاصة فى مسألة الكتب. فالكتابة كانت أمنيَة كبيرة. وللعلم، فالكل هنا إما شعراء أو فلاسفة. ولماذا نكتب؟»

قلت له: «ولِمَ لا؟»

رد فجأة: «لكن لا أحد، إذن، كان سيضع الأمور فى نصابها، لا أحد كان سيكتب أو على الأقل «لِمَ لا ...».

ثـم واصل كلامه بنبـرة أكثر هدوءًا: «الآن، مـن المحتمل أن تكون رؤيته الخاصــة فى الكتب قد اكتسبها فى شبابه ثم تجاوزها. وأتصــور أن حضرتـك تريـد أن تعرف لماذا أو ربمـا لأى فكرة كتابــة أو بقاء فى العالم، واحد مثله أعتقـد ألا . . . أو لم يرد أو لم يعـرف ماذا يعمل . . . ولكن اسمع، لا أعرف أكثر من ذلك . . . وعموما فقد حان الوقت، ويجب أن أكون بالمنزل فى الميعاد».

سرنا بالخارج عبر طريق فسيح تحيط به الأشجار والفاترينات فوق الرصيف. ومن حين لآخر كنت أذكر له بعض الأسماء يعقبها السـؤال: «هل هو حىٌ؟» «هل هى على قيـد الحياة؟»، وكان يرد دائمًــا: «نعم بالتأكيد»، باستثناء مرة قال فيها: «ها، لم يعد على قيد الحياة». وفى كل مرة كان يُخْرِج من جيْبه أجندة وكراسًا صغيرة لتدويـن الملاحظات. وقام بنقل العنوان من واحدة إلى الأخرى، ونزع الصفحة وأعطاها لى. وعند الاسم الثالث بدأ يأخذ الأوراق المماثلة للتى انتزعها من قبل، من آخر جزء من الكراس.

قلت له: «هـل كان واحدًا ممن يسخــرون دائمًا؟ هل كان ممن ينزعـون الأرض من تحت أقدامهم إلى أن يتأكد من أنه غاص فى أعماقها؟».

أشاح بذراعيه من داخل جيوب معطفه، وأجاب وهو شارد البصر: «كانت عنده روح الدعابة، وهو ما تسمِّيه أنت «السخرية». لم يكن يستلقى فوق الأشياء، وكان ذلك أمر جميلاً للغاية: كانت صورة من صور الإنسانية والتواضع بالمعنى الإيجابى هذه المرة. لم يكن يزهو ولا حتى مع نفسه بلا شك. وإن حدث ذلك فإنه يكون بسبب روح الدعابة وليس لرغبته فى السمُوُ ... ستقول حضرتك: إن أى شخص لا يتوقف فإنه سُمُوٌ. وعلى العكس كان مختلفًا فلم يكن لديه الحس الجدلى المتدرّج على طريقة «جوته». فقد كان يغيّر جلده دائمًا، وهنا كانت تكمن عدم قدرته فى تحقيق شيء، فقد كان ينسى ما فعله، ليس رغبة فى السمو، ولكن لرغبته فى السقوط ....».

كان يراقب الأشخاص الذين نتقابل معهم بقدر كافٍ، وكان يسير وهامته عالية. وصلنا إلى إشارة مرور، وأشار إلى بوابة كانت توجد على الرصيف المقابل. وقال: «ها هى». وانتظرنا حتى أصبحت الإشارة خضراء ثم قال: «من الضرورى جدًا أن تتحدث مع «ليوبا». فقد كانت أكثرهم قربًا منه، وهى امرأة غير عادية. اذهب إلى لندن وتحدّثْ معها».

سألته: «كم تبلغ من العمر، سبعون عامًا؟»

«لا ، كيف سبعون عامًا؟ «ليوبا» كانت من نفس عمره ، وبالتالى فهى أكبر منى سنًّا . وأنا أبلغ من العمر أربعًا وسبعين عامًا ، فهى إذن تقترب من الثمانين» . أصبحت الإشارة الآن حمراء وبدأت السيارات فى المرور . نظر هو إلى السماء ، وقال: «تريستة» تشبه «نيس» ، لولا الرياح» .

وعندما تغيّرت إشارة المرور ، ودّعنى فجأة . تابعته ببصرى قليلاً وهو يعبر الطريق ثم انصرفت .

تصفحتُ قائمة الطعام داخل مطعم للوجبات الساخنة ، دون أن أكترثَ للوقت الذى سأقضيه واقفًا على قدمىّ أو لكون «الروزبيف» هو فى الحقيقة شريحة من لحم ثور مغطّاة بالصلصة الحرِّيفة . وفى مدينة صغيرة مثل هذه حيث تأخذ الأحداث حجمًا مختلفًا ، فإن بعض الأحاسيس مثل ، الحيرة بسبب الخشب القديم والطلاء الباهت لهذا المكان ، أو الطابع المعدنى للأطعمة فى الأوانى الساخنة ، ربما يجعله أكثر من متواضع .

بعد أن خرجت من المطعم ، انتابنى من جديد إحساس رقيق بالاحتمال . فقد ذهبت لتناول الطعام ، وكنت أشعر بأن كل شىء على ما يرام ، الآن أشعر بالالتزام نحو شىء ، رغم صعوبة تفسير ما هذا الشىء .

فكل شىء ازداد سوءًا بسبب الهدنة العامة التى قضيتها فى ساعة الغداء، وعندما تكون المدينة فى حالة عمل، فإنه يصبح من المحتمل أن نكون منعزلين وأغرابًا. ومع الهاجس الذى يتملّكنى بين الحين والآخر بأن الآخرين قد يستطيعون رؤيتى، أينما كنت سائرًا أو متفرجًا، يجعلنى لا أرى شيئًا.

وصلتُ على هذا النحو، إلى الميناء. وسرت عبر المقاعد النظيفة اللامعة مثل الأعمدة التى تُرْبَط بها السفن وبين اللافتات المكتوب عليها «ممنوع الوقوف»، لاحظتُ أن الطحالب تتم إزالتها من فوق الحواجز بصورة دورية باستعمال الأحماض، وعدم وجود أى سفينة بالميناء يزيد من قيمة الصيانة. لا شىء مهمل، ولا حتى طرق السكة الحديد أو أذرع الأوناش المطوية مثل أجنحة العصافير. كان يبدو أن الملاحة قد هجرت المدينة بصورة قاطعة ولم يتبق غير التجاويف المحددة والمخططة بعناية.

ذهبت إلى بار أمام المحطة البحرية، وهى محطة مجهزة تمامًا وبها ساعة تعمل بدقة، ولكن المحطة مغلقة. نظرت إلى الميناء وأرقام التليفونات التى بعثرتها على المائدة الصغيرة؛ كانت لأشخاص لا أدرى ما عمرهم الآن ولا أعرف عنهم شيئًا.

نهضت سيدتان كانتا تجلسان على مائدة عليها مفرش من البلاستيك الملون، ووضعتا عملة معدنية داخل آلة الفونوغراف؛

فانبعثـت أغنية أمريكية متكلفـة تحمل بعض التلميحـات. ارتكنت السيدتـان على الفونوغـراف وشرعتا تحـركان سيقانهما قليلاً هنا وهناك مع إيقاع الموسيقى، وكانتا تنظران إلىَّ بتركيز. وركزت أنـا ببصرى على عداد النقـاط للعبة البليـاردو الكهربائية، وعلى الأرقـام التى كانت تتصاعد بسرعة، كمـا هى الحال فى مضخات البنزين. كانت هناك ما يشبه المباراة بيننا في من سيقاوم أكثر: فى تركيزهما علىّ، وفى تركيزى أنـا على النقاط. وحيث إن لاعب البليـاردو الكهربائى كان يلعب بآخر كـرة صغيرة، اعتقدت أننى فـى نهاية الأمر سـوف أستدير بمحض إرادتـى أو رغم أنفى، لا أدرى. لـم يكن هناك وقت، فكل الأحـداث وقعت معًا: فقد انتهت الأسطوانـة، ولاعب البلياردو الكهربائى وجّـه ضربة للآلة التى كانت قد أنهت المباراة، وأطلقت السيدتان لدى خروجهما ضحكات خليعة.

وقد غـادر لاعب البليـاردو الكهربائـى أيضًا المـكان بعدهما بقليل. بقيتُ بمفردى مع فتاة البار، التى كانت تفتح من حين لآخر خزينة البـار لتأخذ النقـود المعدنية من أجل تشغيـل الفونوغراف فتُحـدِث بذلك طنينًا. وكانت تضغط على الحروف والأرقام دون النظر إليهـا. كان للموسيقى أثر أشبه بالموسيقـى التصويرية، فقد كانـت تحوّل كل شيء إلى مشهد تجريـدى مصاحب لها. وأصبح

كل شيء وكأنه صـورة: البار، والفتاة من جديد خلف المصطبة، والجرارات التـى كانت تمر مسرعة مـن وراء الزجاج، وبقائى ذاته هنا.

حاولـت أن أركّـز على الأشيـاء التى كان يجب علـىّ أن أقوم بهـا... وعلى العكس، كانت ترد بخاطـرى أشياء أخرى أعرفها من قبل. ذات مـرة اصطدمَ بواجهة زجاجية لم يكن قد رآها ونُقِل إلى المستشفى. وقبل وفاتــه بأسبوعين كرر نفس الحادث، ولكن مالك الواجهة الزجاجية الثانية تركها محطمة تخليدًا لذكراه.

كانت له فترتان طويلتان من الخمول والسُبات، وكان يستخدم فى سعـادة لفظ «فشل». وكان يقرر أن يبـدأ بنجاح فى العمل فى اليوم التالى، وكان القرار يتأجّل من يوم لآخر ولعدة أسابيع.

فـى خطاباتــه لا يضع أبـدًا حرفًا تاجيًـا بعد النقطـة. وقد كتب خطابـات كثيـرة جـدًا. ويستخـدم بصـورة نـادرة جـدًا الجمل الموصولـة. وقد وجد طريقة خاصــة به ليحتمى من الحر فى شهر أغسطس، وقـد وصف هذه الطريقة وكأنهـا منهج يحتذَى، وهى عبارة عن: تناول وجبة دسمة فى الصباح بعد الاستيقاظ مباشرة، وفــى منتصـف النهـار لا يتنـاول شيئًا، يأخـذ فقط حمـام شمس

وبعدهـا دشًا، يلـى ذلك قدح من الشاى أو قطعـة من البسكوت أو قليـل من الحساء، مع تناول عـدد كبير من أقداح القهوة حتى يحل المساء. وفى المساء يتناول ما يحلو له من الأطعمة. وكان يرتدى القمصان الحريرية عند ذهابه لأصدقائه الأرستقراطيين، ويرتدى كنزته السميكـة المصنوعة من الصوف، عندمـا يقوم بجولة على قدميه؛ ولديه ملابس عادية يرتديها فى المنزل أو عندما يذهب عند أصدقائـه من غيـر الأرستقراطيين وغيـر المتجوّلين معه. وربما كان يميّـز بين أصدقائه على اختلاف أنواعهـم، وليس فيما يتعلق بالملابس، ولا يعرف المرء ماذا كان يفعل فى كل هذا الخضم.

خرجـت من البـار. وسرت فـى طريـق صاعد ملتـوٍّ محاط بالأشجار، تارة أجد أمامى منزلا صغيرًا وتارة أخرى أجد المنزل الصغير على الجانب الآخر. وفى كل منحنى تنعكس الرؤية وكأننا فـى مسبَح. كان هناك متسع من الوقت للوصول إلى وسط المدينة سيـرًا على الأقدام، وقد مررت بأطراف ضاحية لم أكن أتخيل أن بالمدينة ضاحية مثلها، بعماراتهـا الضخمة التابعة لهيئة القطارات وبملابسهـا المنشورة. استدرتُ، وتوقفتُ ثم عاودتُ السيْر: ربما لإحساسـى بالرتابـة، أو لتأثير البـرد فضلاً عـن الحس المرهف لأدنى حركة أو لأقل صوت.

وصلـتُ إلى المحطة بعـد أن سلكت أطول طريـق إليها. وفى النهايـة اخترت أحـد الأرقـام التليفونيـة التى كانـت معى وقمت بالاتصـال. وفـى داخل التاكسـى، أعطيتُ العنـوان إلى سيدة لا أعرفهـا. سار التاكسى عبـر كورنيش البحر، ثـم صعد طريقًا به أحياء جديدة ذات طرازٍ معمارىً متنوعٍ، مع وجود بعض المبانى الإسمنتية المنخفضة، والتى كانت تذكِّرَنى بأوربا الشرقية. وبدأتُ أقسِّم المدينة على هذه النحو. كل الأشياء التى توجد على يمين محطة السكة الحديدية يسير على «النمط اليوغسلافى»، وكل الأشياء التى توجد على يسـار المحطة يسير على «النمط الإيطالى». ونحن هنا على يمين المحطة.

نزلتُ أمام عمـارة رائعة المعمار، كانت هكـذا رائعة وحديثة لدرجة أننى مكثتُ أتأملها مرة ومرة، ثم ذهبتُ إلى الإنتركم لأتأكد من الاسم. حاولـتُ أن أقضىَ البضع دقائـق المتبقية على الموعد بجوار بوابـة منزل مجاور تحت شمس تحجبهـا السحب، إلى أن أطلّ رجل من شُرْفة المنـزل وسألنى ماذا أريد، فغادرت المكان على الفور.

كان الجـو باردًا، ولم يكـن باستطاعتى البقـاء أكثر من ذلك. عدتُ إلى الخلف قليلاً وقرعتُ الجرس.

انفتـح الباب الزجاجـى أمامى، ووجدت نفســى داخل بهو من النيكل والكريستـال، وأرضية من الرخـام اللامع. لم تكن هناك أبـواب، كان هناك تشكيل من الخشب يصـل حتى قمة الجدران. كانت الأبواب موجودة، ولكن كان من الصعب تحديدها بسبب هذا التشكيـل الخشبى، لذا كان من الضـرورى الانتباه إلى التقسيمات الدقيقـة داخـل المكان. وصلت إلـى الدور الأخيـر، كانت هناك سيـدة تقـف عند المدخـل، وكانت تبـدو لطيفة، وكانـت تبلغ من العمر نحـو خمسين عامًا. ابتسمتْ قائلة: «كان يمكن لحضرتك أن تأخـذ المصعد». أجبت قائلاً: إنه لا يوجد. ثم سألتها: «هل والدتك بالمنزل؟»، قالت: «لا، ولمَ؟». أخبرتها أننى كنت قد اتصلتُ بها عبر الهاتف، وأخذت معها موعدًا. فقالت: «إنها أنا».

كانـت الإضاءة بالداخـل مبهـرة، وكانت الأرائـك منخفضة للغاية، وكان الصالون الـذى جلسنا به، يتكون فى جانب منه من شريحة من الزجاج، والتى من خلالها، وربما بسبب ميْل الخليج، والـذى لم أنتبه إليه عند وصولـى، يمكن رؤية المدينة من البحر. فـى البداية اعتقدت أنها ذات مساحـات كبيرة، وليست فقط وعرة وغيـر متناسقـة. أو ربما لأنها مـن هنا تبدو بلا ملامـح، أو ربما نتيجة لأنه أول مكان غير عام تطأه قدماى.

استمعـتُ لما كان تقوله السيدة. وفى أثنـاء حديثها كنت أنظر، بيـن الحين والآخر، للوحـات المعلقة على الجـدران، وبعد قليل أيقنت أنها كلها لذات الرسام، وبعدها بقليل نحجت فى قراءة التوقيع المكتوب على إحدى اللوحات القريبة. قالت السيدة: «عندما يكون المـرء هادئًا فإنه يوجِّه أسئلة حـول مدينته. كان هو على العكس، يأتى عندنـا فى الريف، وكان يمكث يوميـن أو ثلاثة أيام، ولكنه لم يكن يطلـب معلومات عن المكان هنـا». وأضافت قائلة، وهى تبتسـم ابتسامة عريضـة مثيرة للدهشة: «أحـداث كثيرة وقعت فى ذلك المنزل».

وقـد بهرنى أنها كانت تتحدث عن تلـك الأحداث وكأنها واقعية وأسطورية. بل إنها قالت بالفعـل: «مطعم نهر برنتا»، «الزجاج المكسور»، وكأننى لابد أن أعرفهما، وفى الواقع كنت أعرفهما، ولكن لم أتخيل أنه يمكن الإشارة إليهما بالعنوان فقط. قالت السيدة: «كان يخـرج فى الصباح الباكر وكان يحمـل معه دائمًا الكثير من الكتب. كان يبحث عن مطعم على ضفاف النهر، شريطة ألا تكون به مصابيح النيون. وقد حكى لنا؛ أنه عثر على مطعم غير عادى، ووصفه فـى كل جزء منه. ولكننا لم نجد هـذا المطعم أبدًا. وأيقن زوجى أنه ربما اخترع هذا المطعم، فقد كان يعرفه منذ زمن، أما أنا فقد عرفته فى وقت متأخر نسبيًا».

نهضتْ من فوق الأريكة، وقالت: «انتظر من فضلك لحظة»، ارتقتْ درجات السلم، وربما كانت الغرف بأعلى مضاءة بالمثل. نهضت أنا أيضًا، كان يروقنى السكون الذى يخيّم على المنزل. تجولتُ قليلاً داخل المكان، وكان يبهرنى الزجاج الموجود داخل المنزل، ثم شاهدتُ مجموعة من البركار داخل تجويف بالجدار لم أكن قد رأيتها من قبل.

قرأت المطبوع عليها من أسماء مدن ألمانية أو إنجليزية، حيث تم صنْعها، ثم تابعت ببصرى إطار اللوحات المصنوع من النحاس، والذى لم يعلوه الصدأ. كنت أفكر فى آخر مرة استخدمت فيها لتثبيتها: فالرجل ينظر من خلالها، ثم يرفع بصره عنها ويحدد بعد ذلك الأداة التى يجب استعمالها، ثم يبدأ فى ضبط المسامير بصورة لا نهاية لها ولا اطمئنان فيها. ثم يُخْرِج بعد ذلك نموذجًا أكثر دقة يمكن التحكم فيه، ويعقب ذلك البقاء الطويل داخل الدرج، والذى حفر على قاعِهِ الشكل نفسه بصورة عكسية، وما بين تصنيع الشيء ووضعه فى مجموعة، فإن كل الوقت الذى يمر هو وقت ميت.

عادت السيدة ووقفت خلفى دون أن أشعر بها. استدرتُ لأعبِّر لها عن إعجابى بمجموعة البركار. لم أكن أتوقع ذلك:

وجدت إطارًا من الفضة تقريبًا أمام الجاكيت، وبه صورة. من المستحيل ألا أخذها. أبعدتُ الصورة بكامل يدىّ، وعدت برأسى إلى الوراء، كما يفعل مرضى طول النظر. كنت آمل أن يبدو كل شيء طبيعيًا. قالت السيدة: «ها هو ذا «بوبى»». شردتُ ببصرى بعيدًا عن الصورة. قالت هى: «هل ترى كيف يقف بين الصخور؟»، أجبتُ: «آه، نعم». أشارت هى إلى الموضع، الذى ربما كان للرجل فى الصورة: «عندما كان يأتى عندنا كان يجلس دائمًا على الأريكة، وكان يفتح ذراعية على مصراعيها ويرفع رأسه إلى أعلى هكذا».

أعدتُ إليها الصورة، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث. كان يبدو لى أنه يمكننى أن أفسر لها بهدوء، أو ربما كان هذا واحدًا من المواقف التى شعرتُ فيها بالتزام طبيعى وهادئ بترتيب الأشياء. وفجأة قالت السيدة: «ليوبا بلومنتهال» سيدة غير عادية. سترى حضرتك، أن التعرف إليها سوف يكون بالنسبة لك تجربة لا تُنْسَى؛ فصوتُ هذه المرأة سوف يظل يتردد فى أذنيك. ذات مرة وهى فى السيارة معه، وفى صحبتهما فتى صديق لهما تعرضوا لحادثة. كانت لديها خُصْلة كبيرة من الشعر الأبيض قللت من الألم. ثم أصيبت فى الشبكية، وأصبحت عمياء تقريبًا بعد ذلك. وقامت بتعليم فاقدى البصر القراءة بطريقة برايل، وربما ما زالت تفعل ذلك».

ومـرة أخرى تحـوّل البطء إلــى حالة من الجمـود. كنت أوَدُّ البقاء فى هـذا المكان لأرى فقط كيف يصبح الضوء بالخارج على البحر والمدينـة رماديًا وأزرق بصورة كبيرة، لدرجة أن زجاج الشرفـة الأسود أخذ يعكس الأنوار والحركـة داخل المنزل. لكن القطار الذى سأستقله بعد قليل، هو الوسيلة الملائمة. قالت السيدة: «هل ترغب فــى أن أصطحبكَ بسيارتى؟»، شكرتها على ذلك كما ينبغــى، ولكن سعدتُ بذلـك، ولا سيما وأننى لم أجـد تاكسيًا على التليفون.

نزلنــا إلى الجـراج، وقمت برفـع الباب المعدنــى إلى أعلى، فشاهدتُ سيــارة قديمة ماركـة «بورجورد» المكشوفـة فى نهاية الجـراج. قالت السيـدة: «كانت هــذه السيارة لزوجــى. ولم يعد يستعملها أحد».

سرنــا عبر شوارع كنت أعـرف بعضها، ولكن مع رؤيتها من السيـارة كنت أشعر بإحساس مختلف عـن الاحساس بها منذ بضع ساعـات مضت. وعندمــا نزلتُ مـن السيارة قالــت السيدة: «فى المرة القادمة نرجو حضورك على الغداء».

كان هناك مكان بجوار نافذة القطار، وكانت تجلس أمامى فتاة كان وجهها حزينًا، كانت تبدو وكأنها توشك على البكاء. أتمنى أن لا يحدث ذلك وأن يكون الحزن الذى يكسو وجهها هو أمر طبيعى، ولكن بعد ذلك نهضت الفتاة لتشاهد الغروب فوق الخليج، مع مغادرتنا للمدينة، وقد حلّ بها الوهن حتى إننى لم أعرف كيف تتحكم فى خطواتها.

وأمام هذه الكآبة، كان علىَّ أن أشغلَ نفسى ببعض الأشياء؛ فعندما جلست مرة أخرى فتحتُ حقيبتى الصغيرة وأخذتُ أرتب ما بداخلها. فى الواقع كنت أتصفح ثلاث أو أربع ورقات بيضاء تمامًا، ولكن المهم أن أظل برأسى منخفضًا لأسفل. كنت أفكر فى الصمت، وكيف أنه قدرة غير عادية. إنه أمر يسير جدًا، يكفى أن تبعث بإشارات توحى بأنك لا تريد أن تتكلم، ولا أحد يمكن أن يرغمك على ذلك. لكن الآن القدرة على اللا كلام، تبدو لى نقطة صمود مطلقة. أغلقتُ الحقيبة ورفعتُ رأسى. قالت لىَ الفتاة: «ماذا تدرس أنت؟». ابتسمت دون أن أرد عليها، وكأننى لم أفهم لغتها. ألحّت الفتاة فى سؤالها.

مكثتُ أستمع للفتاة فقط، وكان يكفى أن أبتسمَ لها من حين لآخر وأقول لها «نعم»، «لا». تحدثتْ الفتاة عن هذه المدينة، وكيف

هربـت منها، وتحدثت عن روْعتهـا وعن عدم القدرة على العيش بها، وتحدثت عـن الأماكن والمناظر التى ربما أكون قد رأيتها أو سأراها. لا أدرى كيف وصلت هذه المدينة إلى السينما الأمريكية، وقد كانت هناك دراسة عامة لها. نظرتُ إلى الكوب الورقى الذى كان فى يدها، وعند مرور بائع المشروبات طلبتْ منه أن يضع لها فــى هذا الكوب ثلاثة أقداح من القهـوة. قالت الفتاة، وهى تتناول القهوة: «من نهر «الأزونزو» حتى هنا نحن جميعًا سلاف، ولكنك لا تستطيــع أن تقول ذلك لأهل هذه المدينــة، فهم يعتبرون أنفسهم ألمانًا».

قلت فى نفسى: «ربما من الممكن أن أتظاهر بالنزول فى المحطة القادمة». فكرت فى ذلك علــى مَهَلٍ وتظاهرتُ بمشاركتى لها فى حديثها. انصرفت الفتاة إلى الحديث عن الكتب، وروت لى اثنتين أو ثلاثًــا من روايات «فيكتور هيجــو». وفى النهاية قالت: «توجد معاناة كبيرة، أليس كذلك؟ وإيمان كبير أيضًا». هى تعرف تقريبًا كل الكتــب التى ستقرأهــا. قالت الفتاة: «ألا تــرى أنه يجب قراءة «نيتشه»؟». فقلتُ لها: «آه، بلا شك».

كنــتُ ألمســ فى كلامهــا طاقة فطريــة يشوبها التوتــر، وكنت أتفاعل معها كالمعتاد: كنت أطيل السكوت والتمهل فى الرد عليها.

وقد انتهزتُ الفرصة عندما توقفتُ عن الكلام ، على غير المتوقع ، فأغمضــتُ عينيَّ وتظاهرتُ بالنوم . بقيتُ هكــذا وأسفتُ قليلاً على هــذا، ولكــن كانت حيلة وقتيــة ، فقد كنــت فى حاجة إلــى الهدوء الخارجــى ، والداخلى أيضًا لبضع دقائــق قليلة. ثم قلتُ فى نفسى: «الآن الأمر يسيــر على ما يرام، ويمكننى أن أفتح عينيَّ» . ولكن كان ذلك آخر شىء فكرتُ فيه .

الفصـل الثالث

وقفتُ بجوار جدار لسفينة حربية فرنسية اسمها «إليه دولرون». كان من الصعب تحديد مواعيد فى الصباح وكنت قد وصلتُ لتوّى مـن محطة القطار إلى الميناء. وقد رأيـت شكلا رماديًا بين ألوان البانـورام المبهـرة المتعامدة علـى الفندق الكبير. ومـع اقترابى رويدًا رويدًا تحول الاختصار، الذى كنت أراه على جانب الجدار مـن AG10 إلى AG10، نظر بعض البحارة المطلّين إلى أسفل، وكان يحدوهم الإحساس بالأهميـة والامتلاك. لم أكن أعرف إذا كان مـن الممكـن الصعود على متن السفينة، سـرتُ عبر رصيف الميـنـاء إلى أن وجدت مكانًا أجلـس فيه. من هنا كنت أرى السفينة جيـدًا؛ كانـت مرتفعة وقريبة بصـورة غريبة، ثم جـاء فتى وفتاة يحملان المِخَل وعبرا جسرًا كان بمثابة النهاية الطبيعية لطريقهما، وصاحَا بصوت عالٍ للضابط فوق السفينة قائليْن: «نحن فرنسيان. إنه لأمر رائع أن نجد سفينة لنا هنا». ابتسم الجميع ثم اختفوا الثلاثة واحدًا تلو الآخر داخل فتحة مربعة فى السفينة.

الآن سـوف يسيرون داخـل الممرات الضيقـة وبين الحوائط الرأسيـة للسفينة، والتى توجد أمام كل مقر بداخلها، وقبل الولوج

داخـل السفينة سوف يشرح لهمـا الدليل معنى صالـة الماكينات. وسـوف يشرح لهمـا أن «إلن دولرون» هى سفينـة معاونة، كما يبـدو من تسليحها المحدود وهيئتها التجارية. وستبدو بعض المقار مثل كابينة قائد السفينة أو كابينة عدّادات الزمن بصورة لا يصدقها عقل صغيـر بالنسبة للزائرين، وأحيانًا تكـون بالفعل كذلك. ويتم التحـرك بداخلها بمـا يتناسب مـع الأثاث. فتح المـلازم البحرى دولاب العدادات كانت متراصة على نفس المستوى ومتوقّفة. قال المـلازم: «يجب شحـن العدادات كل يوم فى نفـس هذا التوقيت، فهى حساسة للغاية. وعندمـا يحدث اشتباك بالمدفعيات نقوم بنقلها مـن هذا المكان ونضعها داخـل كابينة فى وسط السفينة على مرتبة سرير».

ما كان يثير القلق بصورة خاصة هو؛ أن يعرف الفتيان بوضوح موضعهمـا بالنسبـة لترتيب الكبائن، بل إنه سألهـم صراحةً: «أين نحـن؟»، فأشارا على صالـة الماكينات، والتى أثـرت فيهما أكثر مـن أى موضع آخر بالسفينة، حتـى وإن رأيا بداخلها توربينات، وليست عـدادات الزمن ببندولها الذى يتحرك يمينًا ويسارًا، ومن هنا يقومـون بقياس المسافة، هـذا بجانب حديثهم عـن الطوابق، والسلالم والممرات.

أمـا غرفة قيـادة السفينة، فهـى صدمة بالنسبة لهمـا، فلم يكونا يتوقعـان أن تكون بها آلات قليلة ومساحات كبيرة فارغة، سيقول لهما الدليل إن السفينة هى وسيلـة النقل الوحيدة التى تتسم بخاصية التحكـم، بعيدًا عن غرفة المحركات، وسوف يريهما اللوحة خلف قائـد دفّة السفينة، حيث يتـم تسجيل إشارات عـن المسار الحقيقى واتجاهات البوصلة وعدد لفات الدفاعات.

وتلبيـة لطلبهمـا، سيفتح الـدرج وسيخرج منه لوحـات مقارنة بين عدد لفـات الدفاعات وسرعـة السفينة بالعقـدة، وسيقول لهما علـى الفور: «لكن هـذه لوحات متفائلـة» . «فى الواقـع يجب أن نضع فى الاعتبار غاطس السفينة، والنباتات العالقة بالجزء السفلى منهـا، وطفو الدفاعات فـوق الموجات العاليـة، ومدى عمق قاع البحر، وكـم التعديلات التى يقوم بها قائد الدفة فـى توجيه السفينة وفقًـا للمسار الصحيح». وربما يرغب أيضًـا فى أن يخبرهما كيف تسجَّـل كلٌ واحدة من هذه الأمور، ولكن الفتييْن سيكونان قد شردا وسينظـران حولهما وسوف يريان أن كابينـة القيادة الحديثة يجب أن تكون فيها بجوار درج الإعلام لوحة التحكم الإلكترونية، وأنه تقريبًا أصبحت عادة سيئة وجود عجلة الدفة الخشبية ذات المقابض، كما هو معروف. وسيصف لهما الملازم مدى مرونة الخشب تحت الأيدى فى قيـادة السفينة لساعات، بالمقارنـة لصلابة الحديد. فى البداية، عندما انتهيا من زيارة الجانب الحركى، وهو الجزء السفلى

والمرن للسفينة، قال لهما قائد الدفة: «هذا الجزء يتكلم. ومع إيقاف الماكينات يمكن سماع هذا الصوت». ولكنه ربما يتغاضى عن القول؛ بأن هذا الصوت الكئيب للقاع ولجسم السفينة، وهذه الزفرة الليلية للمواد المصنوعة منها السفينة أمر مرعب.

صندوق البوصلة ومقياس الزوايا، مثل هذه المسميات سيذكرها الملازم، فبعض الألفاظ تجعل المرء يسلك سلوكًا محددًا. ثم إن هذه الألفاظ ستروقه، لأنه ليس لها مرادفات، ويمكن أن تضفى الدقة الفنية على كم كبير من المسميات، مع التخلص من أى عقبة تقف أمامه فى توضيح المسمى. ولكن مع هذين الفتيين سيبذل جهدًا فى المقارنة الدائمة بين الأشياء والتحركات فى البحر وبين الأشياء والتحركات فوق الأرض. سيقول لهما فى الغالب «ماذا» و«هكذا». قد شرح لهما المسبار الفائق لسرعة الصوت، فقال: «سنصبر كثيرًا»؛ ثم أضاف قائلاً: «هكذا نسير فى البحر وكأننا نسير بأقدامنا على القاع».

ما تصور الملازم عن الغرق؟

لم ينزلا بعد من السفينة. إنها ثانى مرة يصل ثلاثتهم إلى جسر النزول، ثم يتحدثون ويعودون مرة أخرى إلى مقدمة السفينة، وكأنه نَسِىَ أن يطلعهما على شىء آخر.

فكرتُ فيما يمكن أن أحسدَ الملازم عليه.

طريقته فـى التركيز علـى الزاوية والارتفـاع، والتعوُّد على الاعتداد بالنفس أمام أى شىء. أو طريقته فى النظر: فهو فى الغالب يلمـح بطرف عينيه، معتاد على النظر بالتوازى. يمكن أن أحسده علـى تصريف النجم، حيث إن النجم يتصرف مثل الاسم. أو على المجـال اللا نهائى والمساحات الشاسعة فى الفجر وعند الغروب، واللحظـات الفريدة التى يتزامن فيها النجم مع الآلة. ولكن تعجبنى أيضًـا نوبات الحراسة، والتنظيم الداخلى، وأصوات الإذاعة أثناء الليل - فأصوات الإذاعة فى الليل شىء مختلف تمامًا عنها بالنهار. وربما تكون هناك أيضًا كتب لـم تكتمل قراءتها: ويفكر المرء فيها أثنـاء عمله، وهو يعرف أنها توجـد هناك، فينتظر حتى نهاية نوْبة الحراسة حتى يواصـل قراءتها. كان الإبحار يمثل لى وجودًا طيبًا للتأمـل والتعامـل معًـا، لبعض الأفـراد مثلما كان فـى الماضى، عندمـا كانوا يضعون شيئًا فى المـاء لقياس السرعة، وعندما كانوا يعرفون من دقـات النبض الوقت الذى كانوا يستغرقونه فى السير من مقدمة السفينة إلى نهايتهـا، كنت أفضِّل، من بين الأشخاص، الضابـط المساعد. أعلم أن القائد هـو القائد، لكن الضابط المساعد يصدر الأوامر حتى يتم إحكام القيادة. فهو يتابع ويتعاون مع طاقم السفينـة. ليس نائبًا، بل مـن حيث الرتبة العسكريـة فهو يتساوى

مـــع قائد السفينـــة، وفى بعض الأحيان كان يفــوق القائد، كان هو المسئــول الحقيقى عن السفينـــة، وكان يقوم بـــدور المالك للسفينة فى المسائل التجاريـــة. كان يبدو لى أن الضابط المساعد هو الذى يكفــل استمرار كل شـــىء على ظهر السفينة. ثم بـدأتُ أدركُ؛ بعد ذلك بقليل؛ مدى قيمـــة قائد السفينة وبدأتُ أقدِّره. كان يروقنى فى البحرية الاحترام الدقيق والرشيق لقواعد العمل، أو مسألة أن كل هذا الوقـــار الميتافيزيقـــى للحساب، والوقـــوف والتلاحم له هدف واحـــد فقط هـــو النقل، شىء مهـــم، مهم جدًا، لكـــن ليس غاية فى الأهمية.

كان مـــاء البحر ينبسط وينغلق باستمـــرار، ومن يقف فقط على متن السفينة يعـــرف أنه قد مر بالفعل. إن مسألـــة المرور البسيطة هـــى فى ذاتها علم معقَّد. والغـــرق - وقد خطر على بالى الآن، فى الوقـــت الذى كان فيه الفتيان يصافحان الملازم - أيضًا يوجد كل ما يتعلق به هنا فى هذا العلم، بما فيه من أخطاء محتملة تثير السخرية. لماذا نبحث عنه بالخارج، مثل قبطـــان المسافات الطويلة؟ ولماذا نلقِـــى بعيدًا، كمـــا فعل هو، بكل مـــا يوجد بين المجـــاز فى الغرب والجوارب القصيرة، وبكل المتبقِى الذى نكتب به؟

وربمــا أيضًا لأن جــزءًا كبيرًا من مجازنا تنتهــي به الحال في البحــر مثل النفايــات. فضلاً عــن أن ذلك القبطــان كانت تواجهه مشكلة كيفية الوقوف على الأرض.

كان علــيّ أن أرتــب يومى، ولكن فقــدت التركيز. ودون أن أدرى ســرتُ خلف الشاب والفتاة حتى خارج الميناء. وشيئًا فشيئًا وجدتنى أذهب عند بائع الكتب المعتاد.

قال البائع: «آه، أنت مرة أخرى». سألته إذا كان لديه كتالوج عــن السفــن. فأجــاب: «لا، مستحيل». ثــم عاد بعــد قليل ومعه الكتــاب. بحثتُ فــى القسم الفرنسى، بين السفــن المعاونة. ها هى ذى هنا: «إلين دولرون»، وتوجد صورة صغيرة لمؤخرة السفينة وصورة للسفينة من الداخل. كانت السفينة تسمَّى فى البداية «مور» وكانت تسمَّي قبل ذلك أيضًا «مونشن». لقد كانت سفينة نقل ألمانية سابقة، ثــم أسَرَتها القــوات الأمريكية وتنازلوا عنهــا للفرنسيين. خطرت على ذهنى القشرة المعدنيــة لجانب السفينة، والتى تأملتها لقرابــة نصف ساعة، فقــد كانت مصنوعــة بصــورة تجعلها تبدو متموِّجة أو مقدمتها المستقيمة وكأنها متعامدة على البحر.

وأعتقد على أية حال، أنه قد كتبت بالفرنسية القديمة لـ«أولرون» النصوص الأولى للقانون البحرى؛ والنصوص الأولى أيضًا التى تروى الحياة المخيفة على متن سفن الغرب.

كان الطريـق الـذى أسير به مرتفعًـا وقريبًا مـن بائع الكتب، وكان هـذا الطريق هـو العنوان الذى أحملـه للشخص الذى أبحث عنـه، دخلت متجـرًا لبيـع الأدوات المنزلية، كانت هنـاك امرأة عجـوز تقف خلف المصطبة، وهى ترتدى كنزة سوداء وذراعاها متشابكيـن، وكأنها محراب محفور بين الأشيـاء. قالت لى المرأة أشياء كثيـرة باللهجة العامية، فلم أفهم منهـا إلا القليل، وأرسلتنى إلـى المنزل المواجه لها. ارتقيتُ سلالـم مدخل كئيب بالٍ. وكان الجواد والتنيـن المرسومان على الجدار، ما بين الطابق الأرضى والطابـق الأول، أشبه بالأطلال. قرعـت جرسين. كان الظلام يخيِّم علـى المكان، وعندما سُئِلت مَن بالبـاب، لم يكن من اليسير إعطاء السائل الإحساس بالأمان.

كانوا هنا لا يعرفون شيئًا، فعدت إلى المرأة التى كانت بالمتجر. قالـت لى: «حضرتك تريـد الآن معلومات أكثر، هـو ليس واحدًا من المجانين الذين تم الإفراج عنهم، أليس كذلك؟»، أجبتُ قائلاً: «أعتقـد لا». ثـم أسهبت فى الحديث عن الأفـراد أصحاب الطباع الغريبة؛ فوصفت فتاة كانت تسير بالحى ثم تتوقف لتزيل من الحذاء الطين الذى لم يكن موجودًا بالفعل. ثم تحدثت عن الصابون وعن المذيبـات، ولم أفلـح فى الرد عليهـا أو فى إيقافهـا. كانت للمرأة عينان واسعتان وكأنهما مرسومتان خلف النظارة، وكانت تنظف

المصطبة بإصبعها الخنصـر . وكانت المصطبة تبدو لى نظيفة. ثم مدت جذعهـا وقالت لى فى صوت خافت: «حـاولْ أن تسأل عنه فى المطعم الموجود بالميـدان، ولكن لا تخبر أحدًا أننى أرسلتك. فهناك أشخاص أشرار».

ألقيـتُ نظرة علـى المطعم، غير أننى لم أرغـب فى الدخول. وفضلـتُ علـى العكـس، أن أذهب إلـى البار الموجـود فى نهاية الطريـق المرتفـع. وسرتُ حـول المنـزل على هيئة حـرف الـ U، حتـى لا أمر أمام متجـر المرأة. كان هنـاك رقم داخل دليل التليفون، ولكن فى المرة السابقة عندما اتصلت به لم يرد علىّ أحد. واعتقدت أنه لم يعد يوجد منزل لهذا الرقم. أما الآن فقد ردت علىّ امرأة قائلة: «اسمع حضرتك، لقـد وصلت إلىّ رسائل بريدية منذ فترة غير بعيدة تحمل اسم هـذا السيد، وكان يأتى ليأخذها، وهكذا حدث بيننـا التعارف». قلت لهـا «حسنًا». فأجابـت قائلة: «ربما يوجد مطعم يمكنك أن تعثر فيه عليه». اتصلتُ بالمطعم، وتحدثتُ مـع اثنين أو ثلاثة أشخاصـص مختلفين، وقال لـى الأخير: «نعم، لقـد كان هنـا بالأمس أيضًـا». وأعطانـى عنوان الشـارع الذى يسكـن بـه، وأعطتنى هيئة التليفونـات باقى المعلومـات. وأخيرًا أجريـتُ الاتصال بـه. كان هناك فى الجانـب الآخر صوت مهتز يقول: «تليفـون». وعندما جاء الرد هكذا، لـم أعرف إذا ما كان

علـيّ أن أنتظر بجوار الهاتف أم كان ذلـك صوت الشخص الذى أريـد التحدث إليه، وعندئذ أستطيع التكلـم. على أية حال كان هو الشخصـ المطلوب، وشرحتُ له ماذا أريد، فقال: «رائع». وأنه يمكننى أن أذهب إليه على الفور.

فتح الباب وابتسم. وقال: «إيـه ... كيف حضرت؟»، وظل لحظـة هكذا وهو ينظر إلـيّ فى شىء من الرضـا، ومع ذلك كان وجـودى أمامه وكأنه أمر غير حقيقى. ثـم أشار إلى رفٍّ بمدخل الشقـة، وقال: «هل ترى هـذا الشمعدان وهذا الوعـاء؟ إنهما من منزل «بزلن». رأيتهما، وللحظة خشيت ألاّ أضعهما فى مكانهما. «أتعـرف، بعـد أن رحل من هنـا كتب لـى ... «أرسل لى ذلك الصندوق ... أو «إن فلانًا ربما لا تزال لديه إحدى لوحاتى، هل يمكنك أن تعيدهـا إلىّ؟»... لقد أرسلت له أشيـاء كثيرة، وأشياء أخرى كثيرة لم يتم العثور عليها».

دخلنـا غرفة مضيئة وصغيـرة، ويبدو كل شىء بهـا وكأنه لم يمسـ: حتى لا يغيّـر الترتيب الـذى قامت به الخادمـة التى تعمل بالساعة. كانت لديه طريقة ناعمة فى تغيير الموضوع الذى نتحدث فيه، عندما يريد: كان يبتسم ويدخّن فى سكون، وذقنه إلى أعلى، ثـم يقول شيئًا جديدًا، يقول ذلك وهو يذكر: «...». اكتب لى عن

الأغبيـاء، فعندما يموتون جميعًا سـوف أعود إلى «تريستة». ولا يمكن القول هكذا بأننا كنـا نتحدث بالفعل، ولكن كان هناك، رغم ذلك، توافق، حتى وإن كان ينتمى لنوع ما من المناقشات التى لا ندرى متى حدثت. وبعد قليل من الوقت قال: «عدتُ إلى المنزل، وقالت لى أمى»: «بوبى» ينتظرك بغرفتك على السرير». وبالفعل كان فـوق السريـر، كان ينتظرنــى ويقـرأ... «الآن أنا وأنت سنذهــب لتناول العشاء معًا بالخارج ...». وبالميدان كان الناس يقولون: «هذا الشـاب المحدَوْدِب قد جَن بما يحمله من كتب كثيرة تحت إبطه ...». قلت له: «لكن هل كان بالفعل محدوْدِبًا؟»

نظـر إلىّ وهـو لا يزال يدخن، ثـم أجاب قائـلاً: «... نعم، محــدودب جدًا ... ثم أجـرى تحليلا نفسيًا مع أحــد الأطباء هنا، لكن لا أدرى فيمَ أفاده ...».

كان يستنـد على المائدة وذراعــاه متشابكين، وكان يوضح كل شىء بإخراجه مـن السكون وإغراقه مرة أخرى فى السكون... «هــل أنت فى حاجة إلى النقـود؟» ... كان كريمًـا جدًا ... فقد ورث مــالاً كثيرًا عن عمه، يصل إلى نحــو ثمانين ألف ليرة ... كان يفتــح حافظــة نقوده ويقـول: «ها هى ذا مائة ليـرة لك» ... كانت ثروة.

وفى لحظات التوقف الطويلة، كان ينظر إلىّ وكأنه يتكلم، ولم يكن مـن السهل التفكير فـى ردٍّ. كانت كلماته تبـدو سريعة: «منذ أربعيـن عامًا ألقيت عبارة ونحن نجلس فى مقهى، فقال هو: «آه، مـا أجملها. . . ! هل من الممكن أن آخذ هـذه العبارة لأنى أريد أن أضعها فى روايتى؟»

تركـتُ قدرًا معتدلا من الوقت يمر حتـى يمكننى أن أتوافق مع إيقاع الحديث. ثم قلت له : «ما هذه العبارة؟»

سكـتُ كالعادة، ونظر إلىّ نظرته الثاقبـة المعتادة وهو يبتسم. فى النهاية قال فجـأةً: «كان قد قال: «هل تعرف نفسك؟ فأجبت أنا «نعم»، ظاهريًا. . . » فقال هو: «ما أجملها! هل تعطِها لى؟». . . ثـم نظرتُ بعد ذلـك فى الأعمال التـى كتبها، ولكنى لـم أجد هذه العبارة».

والآن، وحينمـا حانت لحظة التحدث، نهض من مكانه وذهب إلـى هناك. كان قصيـر القامة ومستدير الهيئـة تقريبًا. عاد ومعه كتاب ضخم عن الفن، فتحه على المائدة وتصفّح الكتاب من جانبى وهو يقف على قدميه بجوارى. نظرتُ إلى الصفحة دون أن أقول شيئًا. بعد قليل وضع إصبعه على صورة صغيرة، وقال: «أنا مُخلّد هنـا». نظرتُ بدقة: كان بالصورة صبـى أشقر، أزرق العينين،

يطــل من شرفــة غرفة نومه، وقد بــدا الليل علــى هامش اللوحة. جعلنى أنظر إليها وهو يبتسم ويقول ببطء: «الملاك».

جلس من جديد وبقيْنــا صامتيْن، ومن حين لآخر كنا ننظر إلى بعضنــا بعضًا. أخذت أفكر فى مسألة العبارة. وفى النهاية قلت له: «إذن عندما كان هنا كان يفكر فى رواية من رواياته؟».

وبعــد وقــت طويــل قــال: «. . . إيه، نعــم كان يفكــر، كان يفكر . . . فقد كانت الرواية هى حياته . . .».

الآن أستغل هذه المساحة الزمنية لصالحى، لأتذكر أين سمعتُ هــذه العبارة من قبل. حتى فى أحــد كتبه كان هناك شىء واضح، مثــل: حتى عصر «جوتة» كانت الرواية تستوعب السيرة الذاتية، ومن «ريلك» ومن بعده كانت السيرة الذاتية تتعارض مع الرواية. لكن الأمر ليس كذلك. لا شىء، لا يروقنى ذلك.

كان الدور علىّ مــرة أخرى، أسهبت كثيرًا فى الحديث لأقول له: «بالتأكيد لكن رحيله من هذه المدينة بهذه الطريقة القاسية. . .».

«لا أدرى . . . كان هنــاك ارتبــاط مع عائلــة «سابا» . . . لكن أنا هنا تائه . . . ؟».

لم أُضِع الوقت وسألته على الفور: «لماذا، وأىُّ ارتباط؟»

كان يدخـن ويبتسـم ويدخن. ومـرت بالفعل عـدة دقائق. ثم قال أخيـرًا: «اسمع، هل تقبل بعض التـذكارات؟». تحجّرت فى مكانى، ونهض هو وفتح درجًا، وأخرج منه كارتيْن مصوّرَيْن. وأدار الكارتيْن فجأة قائلاً: إنهمـا بوابتان، إحداهما بها نقش بارز والأخـرى بهـا نقش غائـر. وقال: لقد أمـرت أنـا بتصنيع هاتين البوابتين. هنا كل شـىء يختفى. هدأت، وحكيتُ له عن الردهات ذات الرسـوم الجدارية، والتى أحيانًا أدخلها. مكثنا صامتين لفترة وجيزة. أما الكارتان فقد ظللت أنظر إليهما حتى انطبعا فى ذهنى.

قـال هو: «إيه، إيه . . . «بوبـى». سألته إذا كان «بوبى» هذا هـو اسم مختصر شائع هنـا. لم يرد على الفور؛ وقـال بعد بُرْهة: «بوبى صولو». وبعد قليل قال: «المغنى » ، أتعرفـ».

قلت : «نعم، بالتأكيد».

وتضخّـم وجهه وهو يبتسـم ابتسامة أكثر إبهامًـا: «ربما رأيت حضرتك والدة «بوبى صولو». . . كانت هكذا جميلة لدرجة كانت تجعل الساعات تقف».

كانت الساعة تقترب من الواحدة، فنزلتُ مرة أخرى نحو وسط المدينة، وكانت تصاحبني أمطار قليلة ورطوبة شديدة. كان يعتريني الخوف بسبب ما تبقّى من اليوم، أو بسبب فترات التوقف، أو بسبب التنقلات التي لم تكن ترتبط بمرور الوقت، على عكس الأشخاص الذين كان عددهم يقل دائمًا فوق الأرصفة، وكانوا يتجهون بسرعة نحو منازلهم. وخطر علي ذهني دعوة السيدة صاحبة البركار. حاولتُ الاتصال بها وردت هي قائلة: «تفضلِ علي الفور، فإني أنتظرك». بقيتُ لحظة داخل كابينة التليفون، وأنا أسمع صوت المطر الذي أخذ يضرب بشدة سقف الكابينة المعدني. ساد المكان بعض الهدوء، ربما بسبب البقاء لمدة طويلة داخل المطاعم والمقاهي، نظرًا لهطول المطر. كانت هذه المقاهي، بصورة خاصة، تذكّرني بشبكة صيد المحار، وهي شيء لا أعرف أبدًا كيف أصنعه.

بحثتُ عن حلاقٍ، وحاولتُ أيضًا أن أغتسل قدر المستطاع، ولكن عندما دخلت عند الحلاق كنت مبتلاً للغاية. كان الحلاق من الجنوب، وكانت بشرته داكنة، وبعد أن شرع في حلاقة لحيتي، قال لي: «لحيتك من النوع الثالث».

سألته ما الفرق؟ فتوقف عن الحلاقة وأخذ يتحدث وهو ينظر إلى المرآة قائلاً: «النوع الثالث يقصد به اللحى الجافة والجامدة. أم

النوع الثانى فيقصد به اللحى المتماسكة لأصحاب الوجوه البدينة. أما النوع الأول فيقصد به اللحى الناعمة والنادرة الشعر». سألته إذا كان هو الذى يقسّم اللحى بهذه الطريقة، أم أن الأمر يقوم على أساس علمى، ولكن لم أكترث بالإجابة، فقد كنت أفكر فى قدرته على تكرار هذا الموضوع لكل زبون لا يعرفه، ولا يجد موضوعًا للحديث فيه معه؛ كنت أفكر فى الحديث من أجل إسعاد الآخرين، وفى الحديث كحرفة. أضاف الحلاق قائلاً: «كل فرد له لحيته». لكن بالنسبة لذقنى، يبدو أن من الأفضل استعمال الموس ذى الشفرة الحادة، الذى يتركه الآن على ورقة التواليت التى ينظفه بها مع رغوة وفيرة من الصابون ورقائق الورق السوداء.

فى أثناء الحلاقة، وهى اللحظة التي يكون المرء فيها صامتًا تمامًا ومنتبهًا لريقه الذى يبتلعه، فكرتُ مرة أخرى فى «الملاك»، وتذكرتُ من قال عبارة «الرواية هى حياته». فقد قالت هذه العبارة «كاترين هيبورن» لـ «مونتجمرى كليفت»، فى فيلم«فجأة فى الصيف الماضى». وكانت تردد هذه السلسلة من الكلمات المرتبة، وهما فى حديقة موحشة: الحياة هى قصيدة الشاعر، وقصيدة الشاعر هى حياته. لكن «سبستيان» فى كراسته لم يكن قد كتب أى قصيدة شعرية. وبينما أنا غارق فى أفكارى، قال لىَ الحلاق: «يجب على حضرتك أن لا تتحرك».

بـدأتُ أنتبه للطريق وأنا داخـل التاكسى ، حتى أفهم كيف يمكن أن أرى المدينـة من البحر ، وأنا داخل المنزل الذى أتجه إليه مرة أخرى ، وما إن دخلت ، اقتربت من زجاج الشرفة لأرصد الطريق مـرة ثانية من هنا. ابتسمتْ السيدة قائلة: «لقد أمرت بإعداد أطباق سريعة جدًا». فرددت عليهـا ببعض عبارات المجاملة ، وقلت لها إن الأمور تسير على خير ما يرام على أية حال.

وفـى أثناء الغداء ، حكيت لها عـن فترة الصباح ، وعن لقاءاتى المختلفة ، وعن بعض الوجوه التى قابلتها ، وبعض العبارات التى أثـرت فـىّ. تحدثتُ دون أن أطلـب منها تفسيـرات أو تأكيدات ، بيد أنهـا كانت تعطى تعليقًا خاصًا ودقيقًـا عن كل شخص. وكانت تنظـر إلىّ بين الحيـن والآخر من خلال نظـارة السلحفاة المربعة ذات الضلعيـن البارزيـن. قالت السيـدة: «ألم تفكر فـى الحديث مـع «جرتـى؟» ، أجبت بأننى قـد فكرتُ فى ذلك ، ولكـن لم أكن أعـرف كيف أعثر عليها. قالت هــى: «إنها تسكن هنا بالقرب منا. إذا أردت يمكننـى أن أتصل أنا بهـا» ، وأضافت ، وهى تنظر إلىّ بنظـرة غامضة: «حضرتك تعلم مَن هــى «جرتى» ، أليس كذلك؟ . . . . . . إنها بطلة شعر «مونتالى». قلت لها إننى أعرف «كرنفال جرتى». فابتسمت قائلة: «سترى أى نوع من البشر هى».

وبعد فترة مــن الزمن، حضرت خادمة عجوز ترتبط بالمنزل بصــورة تجعلها تقيّــم الضيوف، حتــى من طريقــة جلوسهم على الفوتيهــات. وضعت الخادمة الأقــداح الخاصة بالقهوة فوق مائدة صغيــرة ومنخفضــة مــن الكريستــال، كانت توجد فــى ركن من الصالون.

قالت السيــدة: «انتظر، سأحاول الاتصــال بها». وبينما كانت تغادر الصالــون استدارت قائلة: «هل حضرتــك فى كل الأحوال مستعــد لرؤية «جرتى» اليــوم أيضًا؟»، قلت: «نعــم، بالتأكيد». وفــى الحقيقة لــم أعرف إذا كنت أرغب فى ذلــك أم لا. ربما كان ذلــك بسبب المساحات الممتدة نيتجة للإضــاءة أو السكون، وكأن فى جزء مــن المنزل، مركزًا لإشاعة البــطء والهدوء اللذين ظلا ينتشران رويدًا رويدًا وكأنهما هالة من النور. عادت وهى مبتهجة وقالــت: «جرتــى» ستنتظرك بعــد عشرين دقيقة. هــل حضرتك مسرور؟. أجبت: «نعم». وقــد دلتنى هى على الطريق والسلالم والبوابــة والإنتركــم والطابق؛ وفــى الحقيقــة، كان منزلها قريبًا للغايــة. واصلنا الحديث معًا وكنا نختار ضمنيًا موضوعات قصيرة ومتفرقــة، يمكن أن نقطع الحديث فيها عند أى نقطة، وفى اللحظة التى سيكون علىّ أن أغادر المنزل. قالت هى فى مرة واحدة فقط، وهــى غارقة فى التفكير: «ربما كان من الصعب جدًا التغير دائمًا،

كما كان يفعل هو؛ أعنى إعادة كل شىء من جديد. أليس كذلك؟».
أجبتُ قائلاً: «نعم، أعتقد ذلك». ولبُرْهة فكرتُ ليس فى تسامح الماضى، ولكن فى التسليم بأننا كنا فى ظروف مختلفة؛ وفكرت أيضًا فى الاهتمام بالاستمرار؛ استمرار الذات والأشياء والعلاقات المُعدلة والمعدّلة، ولكن بصورة غير محسوسة وتصاعدية. وفكرت، كيف كان يصدر ذلك القبطان أوامره وهو فى قُمْرته يحاول إخراج ما بها من أشياء. وقلت فى نفسى: «ليس من السهل ذلك مع وجود تلك الأشياء، فهى موجودة بصورة لا يمكن إزالتها. ولكن من اليسير التخلص منها، فهى فظيعة ومعرّضة للتلف».

كانت السيدة تقف منذ فترة، ولكن لم أنتبه تقريبًا لذلك، وقالت: «لقد تأخرت والأشخاص العجائز هم قلقون، ولا ينبغى أن نجعلهم ينتظرون». ابتسمتُ وقلتُ لها: «نعم، بالتأكيد»، وبدأت أسرع التفكير.

نزلتُ الطريق جريًا تحت المطر، كنت أقفز من هنا ومن هناك حتى أتجنب الأوحال الكبيرة. وكنت أضغط بيدى على المعطف الواقى من المطر حتى لا يسقط شىء من جيوبه. واستدرتُ جهة اليمين ثم استدرت يمينًا مرة أخرى، وها هى البوابة، وهذه هى السلالم، وقرأت الأسماء المكتوبة على الإنتركم وأنا ألهث. وضغطتُ الجرس عند اسم «جرتى. ت». ومع فتح البوابة دون رد يَشْعُرُ المرء بعدم الود.

كانت السيدة تقف على باب الشقة، كانت قصيرة جدًا وذات شعر أصفر طويل. قالت لى: «حضرتك مبتل جدًا. تفضّل بالدخول».

علقت المعطف الواقى من المطر، وأسفت عندما رأيت قطرات الماء تتساقط منه وتنزل على أرضية الشقة.

سرتُ خلف السيدة داخل رواق به دولابان كبيران، واجهتهما من شيش الحصير، ومطليان باللون الأبيض. مررنا أمام واجهة زجاجيـة مُضاءة إلى أن وصلنا إلـى صالون مظلم، وكان الظلام هكـذا حالكًا، لدرجـة أنه كان من الصعب تمييـز الأشياء، ودخلنا مكانًـا تحيطـه الجـدران. جلسنـا على مقاعـد صغيرة فـى وسط الغرفـة، وكنا متجاورين كما هي الحال فى السينما؛ وكنا ننظر إلى نافذة على هيئة بـاب، ويوجد بجانبها نيش، حيث توضع فيه عادة الأشيـاء حتى يمر من خلالها الضـوء الخارجى، وهذا النيش خاوٍ على عروشه الآن.

وقـد نجحت فى بعض اللحظات فـى أن أرى وجهها بصعوبة من الجانب. كانت تضع قليـلا من المكياج الأخضر الخفيف حول عينيها، وأحمر شفاه متوهج علـى شفتيها. كان حاجباها مخطّطين بالقلم الرصاص على هيئة نصف دائرة بصورة متقنة، مثل مهرج

هـادئ، وإن كانت هى لا تبتسم أبدًا، ولكنهـا كانت ببساطة لطيفة ومندهشة. قالت: «عظيـم . . . بازلن». قالت ذلك مرتين. وبعد ذلك قالت ببطء: «كان شريرًا».

رفعـتُ يدىّ، وكأننـى أمام شىء فائق للحـد؛ فأشارت هى فى اعتدال، بأننى يمكننى أن أتصور ما أشاء. ثم قالت بعد ذلك: «كان يعقّـد المعيشة للآخريـن». (كنت) أود أن آخـذ مزيدًا من الوقت. سألتها: «ماذا يعنى «كان يعقّد؟»». تنهّدت بصورة تكاد تُسمع قائلة: «توحيـد أو تفريق الأشخاص. كان هذا هـو شاغله الأعظم عندما كان يعيش هنا . . . كان يحب فتاة حبًا أفلاطونيًا منذ أيام المدرسة. ثـم أحبَّ أخـرى بعد ذلـك. وكان يريـد أن يعطى الفتـاة الأولى لزوجـى . . . وفـى النهاية حـاول أن يقنعنى بضـرورة أن أحبَّ شخصًا من جنوة. ها هو معنى «كان يعقّد المعيشة للآخرين».

بقيـتُ صامتًا، وغرقتُ فى التفكير فى القـدرة على التأثر الذى يعـد شيئًـا ضروريًا لأمـور من هذا النـوع، وفـى الانبهار وفى استعدادنـا لأن نترك أنفسنـا للانبهار. وأخبرتهـا بذلك. فأجابت قائلة: «انبهار؟ لقد كان لديـه فقط ذكاء وقوة غامضة غير مرئية، وربمـا . . . ولكننى كنت حصنًا منيعًا بالنسبـة له. وبالفعل جعلنى أفهم أننى لست جميلة الساقين فحسب، بل إننى على قدر من الذكاء.

كنا نقضى لياليَ كاملة فــى تجاذب أطراف الحديث. وفى الصباح كنــت أرتب وألخّص ما تحدثنا فيه. كان أشبه بمحرك الدُمى، فهو إنسان يستطيع أن يحقق أهدافه فقط من خلال الآخرين، لأنه كان عاجــزًا». استدارت ونظــرت إلىّ بدقة شديدة قائلــة: «هل فهمتَ حضرتك عند هذا الحد؟».

أجبــتُ قائلاً: «نعــم، أعتقد ذلــك». وفى الواقع كنــت مندهشًا بشــدة، ولم أعرف كيف أرد، ربما بسبب قسوة التأكيدات أو لأنها أطلقتها فى شىء من اللا مبالاة المطلقة والهادئة بل والساخرة. وقد شعرتْ هــى بذلك، فأردفت قائلة: «هل حضرتك متأكد من أنك قد فهمــت حتى هذا الحد؟» فقلت لها مرة أخرى: «نعم، نعم»، عندئذ هزت رأسهــا قليلاً مشيرة إلى استعدادها مواصلة الحديث، فقالت: «لقــد رسم لى صورة صديقه المقيــم فى جنوة، لدرجة جعلتنى فى النهاية أعجب به أكثر من زوجى».

«آه، إذن الآخــر كان يعجبــك أكثــر؟»، قلــت لهــا ذلك دون تفكير، وداهمنى الضحك، وحاولــت أن أصحح الوضع بشىء له معنى قائلاً: «كنت أريد أن أقول إنك أيضًا لم تكونى حصنًا منيعًا». فانتفضــت قائلة: «لا، ليست هنــاك علاقة بين هذا وذاك، فقد كنت جذابــة، وفتى جنوة كان بالفعل وسيمًا. كان يعجبنى وكانت حوله

هالـة من الأشياء الأخرى . . . على أية حال ، فقد أقنعنى هو وأقنع زوجـى. وأصبح عندى الاستعداد للذهاب ، وبدء هذه العلاقة غير المشروعة، واصطحبنى زوجى بسيارته حتى جنوة ، وفى اللحظة الأخيرة فررت هاربة».

الآن أبدأ فى وصف ما بالغرفة من أشياء. كانت هناك آلة البيانو على الجانب ، وتقريبًا فى ركن مـن أركان الغرفة ، وكانت توجد مكتبات منخفضـة قاتمة اللون ، على الجـدران الأخرى ، ويوجد فوقها بعض السيراميك. وكنت أعتقد أنها تـدور أيضًا من خلفنا. وكان يتسرب من الزجاج لون رمادى يدعو للنوم ، فقلت لها: «هل يمكن أن نضىء المصبـاح؟». فنهضت ببطء وقالت: «يمكننى أن أحاول». وهكذا رأيت باقى أجزاء الغرفة ، مرتبة وقاتمة وقديمة ، كما تقدم الألوان من الداخل.

جلستُ مرة أخرى ، وسألتها؛ إذا كانت رأته بعد واقعة الزواج. «نعم ، بعد الحرب . . . ومع الكلام يحدث التكرار . . . هل تعرف كيف يكون الشخص الذى يعانى الالتهاب فى المفاصل؟».

أشرتُ لها بالنفى ، فأخذت إحدى يديها وثنتها برفقٍ نحو الخلف قائلـة: «إن العظـام تلتـوِى أحيانًا ثم تثبـت أحيانًـا ، وهكذا كانت

كلماتــه، أى لم يعد تلقائيًا بعد، وكانت كلماته سابقة الإعداد، ومن ثَمَّ أصبح أقل ذكاءً».

فقلــت لها: «هل من المحتمل أن يكون قد تغيّر أو حدث له شيء ما؟» لم ترد على الفور، وأمعنت التفكير ثم قالت: «ولكنه كان دائم الفشل». كنت فى حاجة لوقــت كافٍ يسمح لى بمواصلة الحديث، وفــى نفس الوقت يجعلنــى أتفرغ لكل جزئية ممــا أسمعه، والذى كانت تقوله بدقة ورقة تجعلان المرء يتجمّد مكانه. أو ربما أستطيع أن أرى ما إذا كانت هناك احتمالات أخف حدة أو مثيرة للجدل فى نفس هذه العبارة. قلت لها: «ربما فى البداية وحتى لحظة معينة من حياته كان يتوقع شيئًا، والذى، بعد ذلك، لم . . .». قاطعتنى قائلة فى هدوء: «لا، لم يكن يتوقع. فى البداية كان يعيش، كان حيًا من الداخل. ثم . . . اسمع، هذا يحدث للجميع، فى لحظة معينة، وكل ما فى الأمر أنه هرِم مبكرًا».

فاليوم أشياء كثيرة تبدو لى بلا فائدة، بينما كان الأمر غير ذلك فى الماضى. وكذلك أشياء صغيــرة: فعلى سبيل المثال؛ أنا أحتاج لغطــاء أضعه على المقعد الذى تجلس عليــه. هل يستحق الأمر أن أشترى هذا الغطاء؟. . . ربما حدث كل هذا له فى وقت مبكر جدًا، لأنه هَرِم مبكرًا، لأنــه كان ذكيًا للغاية. لقد فهم من تلقاء ذاته. . .

أن كل شــىء لا يعنى شيئًا ، وأيقن أنه فى النهاية لن يترك أى آثر . لا شــىء. فبالنسبــة للكتابة لم يكتـب شيئًا. آه نعم ، أنــا لدىّ ثلاثة كتيبــات. لا تفيد فــى شىء ، ولو كانت قد نُشِـرَت عندما كان على قيد الحياة ، لما رآه أحد يسير بالطريق ، ولما خرج مرة أخرى من منزلــه. والشىء الوحيد المتبقى منه هــو ، أصدقاؤه الذين أحبوه ، وما زال يعيش بداخلهم كما يعيش بداخلى».

سادت فترة طويلة من الصمت ، ثــم قالت بنفس النبرة السابقة: «لم أسألك إذا كنت تريد قدحًا من القهوة». ثم قامت دون أن تنتظر الرد ، وسرتُ خلفها نحو المطبخ.

فتحــت السيدة دولابًا بأعلى ، وأخرجت منــه إبريقًا صغيرًا من النحاس له مقبض طويل ، ووضعت بداخله ملعقة من البن وأخرى من السكر ثم بعضًا مــن الماء. كانت فى كل حركة لها تنجز شيئًا ، حتى عندمــا وضعت إبريق القهــوة على الموقــد ، كانت منضبطة ومتوانية ربما للالتقاء غير المحتمل لجسديْن فى هذه المساحة.

كان المصبح أكثر إضاءة ، وكان الجزء الأخير فيه أشبه ببلكونة صغيــرة مغلقة مــن كل جوانبها بالزجاج. أخــذتْ تبحث عن عود ثقــاب ثم توقفــت ، وكأن الأمور لا تسير على مــا يرام ، ونظرت إلىّ قائلة: «سأقول لك أشياء مختلفة عما سيقوله لك الآخرون ، ولا

يجـب عليك أن تنسى أننى كنت أعيش داخل كل هذه الأحداث، أما الآخرون فكانوا خارجها، كانوا أشبه بالمتفرجين». أطبقتُ شفتىّ دون أن أرد بكلمة واحدة.

أشعلت السيدة الغاز لآلة عتيقة ذات صنابير فوق مسند الدرج، وأحاطـت النار بالإبريـق بصورة كانت تبدو لـى مبالغة. وقالت السيـدة: «اليوم، وبينما كنـت أنتظر قدومك، فعلـت شيئًا ما كان يجـب أن أفعله، فقد تناولتُ كأسًـا من الكونياك. فى الماضى كنت عاشقـة كبيرة للكونياك، ثم امتنعت عـن تناوله... والآن أتناول بعض الأدوية التى لا تتناسب مع الكونياك».

فقلتُ لها: «هل أنت قلقة من أجل هذا؟».

فأجابت قائلة: «أوه، لا».

وضعـت السيدة الإبريق جانبًـا استعدادًا لصـب القهوة. كانت تخرج مع القهوة فقاعات كثيفة بنيّة اللون. كانت تحمل هى الإبريق من مقبضه ثم تركته على الفور، فظل الإبريق مائلاً فوق الموقد، وكأنه سفينـة أضرمت فيها النار، فأخذت خرقة مُعَلّقة على الجدار وقوّمت الإبريق.

ذهبت السيدة مرة أخرى نحو الدولاب وأخذت صينية وقدحين ووضعتهـم داخل حوض المطبـخ وغسلتهم. وكنـت أرتكن على

الثلاجة ويداى داخل جيبى. كنت أشاهد المطبخ، كان هناك شئ أشبه بقطعـة أثاث صغيرة مفتوحة، وأربـع أو خمس سلال معلقة بأعلى، مـن خلال هيكل من المعـدن والبلاستيك، كما هى الحال فـى محلات الفاكهة. وكانـت كل سلة مزينـة بشرائط من الورق الملون وبشرائط أخرى على هيئة دائرة مثل التى يُزَيّن بها البيض فـى عيد الفصح. لمستهـا؛ وسألت السيدة: «ما هـذه الربطات؟». فاستـدارت، وهى تبتسـم وتنظر إلـى أسفل: «أوه، إنـه الجانب المتهـوِّر فـى حياتى». وعلى الـرف الأعلـى، كان يوجد ما بين معلبـات الطماطم والبازلاء، برطمان خاصـ بأكل القط، وقالت السيدة: «أنا مريضة بالنقد الذاتى، إنه مرض يشل الحركة».

ثم جففت الصينية ووضعت فوقها الإبريق وقدحى القهوة. قلت لهـا: «دعينى أحملها عنك». مررنا مـرة أخرى بالرواق، وكان الضوء النيون ينير بعض الفـازات الزجاجية. جلسنا مثلما كنا من قبل، وانتظـرتُ فى سكون حتى تضع القهـوة على المائدة. كنت أرى من خلال النافذة الطويلة سحبًا داكنة بالخارج.

تنهدت السيدة برفقٍ قائلة: «قلـت لك إنه كان شريرًا، ولكن لم يكن ذلك بمحض إرادته... من الصعب أن تستطيع فهم ذلك. فقد نمـت بداخله نزعة استغلال الآخرين، ولكنه لم يكن مدركًا لذلك. وعندما أصبح مدركًا، لم تعد لديه هذه النزعة».

نهضتُ من مكانى، وسرت بضع خطوات بصورة تلقائية متبعًا الرسومات التى كانت على البساط، بدأت هى فى صبِّ القهوة فى القدحين وهى تمسك الإبريق بطريقة لا تجعل زبد القهوة من أعلى أو الرواسب من أسفل تقع خارج القدح.

سألتها: «ماذا تعنين باستغلال الآخرين؟».

لم ترد حتى تفرَغَ من ملء القدحين. ثم وضعت الإبريق على الصينية، واستدارت فى تمهُّلٍ وقالت: «حضرتك من الأشخاص الذين يحتاجون إلى أمثلة». قالت ذلك وكأن الأمثلة عبء ثقيل لا يحتمل؛ «كان يستطيع أن يتكلم وأن يقود، حتى وإن كانت كلمة يقود ليست بالفعل هى الكلمة الصحيحة. كان يستطيع أن يفعل ذلك مع «إسففو»، ومع «جوتى» أو مع «بولافيو». وربما لم يكن «إسففو» يفهمه، لأنه لم يكن ينجح فى ذلك؛ وكان برجوازيًا طيبًا ليس إلاَّ.

ومع ذلك كان يشد من أزره ويحثه ويوضح له أن كل ما كان يكتبه له معنى. ولكنه نجح فى بث الرعب فى قلب أمى، بنفس الطريقة فقد كان يذهب دائمًا عند والدى فى «جراتس». وحاول أو يقنع أمى بأنها تستطيع أن تسير فى الظلام، وأمى لم تدخل أبدًا غرفة مطفأة الإضاءة. كما أقنع الفتاة التى قدمها بعد ذلك لزوجى، بالحصول على الليسانس، بل وكتب لها البحث. انظر، لقد كتب البحث لها، ولكنه لم يكتب أبدًا بحثه هو. فقد كان يعيِّش الآخرين».

قلت: «ربما كان ذلك مصدر سعادته».

«سعيد ؟ لا . . . إنه . . . كان يتدرب».

كان هنـاك تبايـن فـى بعضـ أجـزاء الغرفـة، أو كان لـون السحب الرمـادى هكذا متلاحمًـا، لدرجة أنه كان مـن المستحيل تخيُّـل أى شكل بداخل الحجرة. تناولنـا القهوة التى كان لها مذاق العرقسوسـ، واحتسيتها وأنا مطبق الشفتين والأسنان حتى لا يمر تفل القهوة الذى يشبه حبّات الرمل إلى داخل فمى.

قالـت السيـدة: «إنه أمر غريب، فذاك الجيـل لم يكن على قدر كبيـر من الرجولة. فقد كانت لديهم مشاكل، وكانوا يتحدثون عنها كثيـرًا. كان هنـاك التحليل النفســى، وكان الجميـع يهتمون جيدًا بأنفسهم، وكانـوا يدرسـون أنفسهم ويدرسـون الآخرين وكانوا يوضحـون كثيرًا. وربما كنا نتحدث كثيرًا جـدًا عن هذه الأشياء، وعلـى أية حـال، فإن ذلك غير مُجـدٍ تمامًا. نعم لقـد تحدث جيلنا كثيرًا جدًا عن كل شىء».

«عن عـدم قدرته على الكتابـة؟ كان هو يأخذ هـذا على محمل الهزل وكأنه شىء لا يستحق».

بقيـتُ صامتًا فى مكانى خاوىَ الوفاض تقريبًا، أو شارد الذهن مع تتابـع سقوط المطر خلف الزجاج. قالت السيدة : «ربما أكون

قد وصفت لك ما لم تكن تريده. ولكن يجب أن تعِيَ من تلقاء ذاتك، أنه يمكن أن يوجد شخص هكذا». فأومأت بإشارة تعنى أننى لم أكن أريـد شيئًا خاصًا، أو أن ذلك لـم يكن موضوع الحديث. فأضافت قائلـة: «كان يمكن أن ينمو هنا فقط. فقـد كان زهرة هذه المدينة، وذلك العصر الخاص لهـذه المدنية». كنت لا أزال صامتًا. وكان يبـدو لى أن «فـى ذلك العصر الخاص» ربمـا كان كل شىء على قدر كبير من الأهمية والدقـة. أى غاية فى العاطفية. وكأنه كانت توجد مسافة كبيـرة. وقلت فى نفسى: «الآن الحديث أصبح مختلفًا وأكثـر صلابة واعتدالاً وأقل تعقيدًا. وكل شىء يسير وفق الحدود المتوقعة بصورة يسيرة».

نهضـتْ السيدة من مقعدها وذهبت إلـى المكتبة وانحنت ببطء. وأخذت ما يقرب من عشرة كتيبات وحملتها بكلتا يديها مثل الطوب الأحمر، ووضعتها جانبًا فوق مائدة صغيرة. وعادت مرة أخرى إلـى المكتبة، حيث كانت توجد، بعد الفراغ الذى خلفته الكتيبات، مجموعـة ثانية من ظهـور الكتـب المصفوفة بالداخـل. تصفحت السيدة كتابًا طويلا، قليل الصفحات، وحملته إلى هنا بعناية كبيرة. ووضعـت الكتاب، وهى تجلس بصـورة تجعل نصفه على ركبتى والنصـف الآخر على ركبتيهـا. ونظرت إلـىّ، ودون أن تقول شيئًا. فتحت ألبوم الصور.

كان عنــدى الوقت، هذه المرة فــى أن أستعد، بــل وأن أضع نظامًــا أفضل للتعامل فى تلك اللحظة. فقــد كان أمرًا مستحيلاً عدم مشاهــدة الصــور، ولكــن عندما كانت تقلــب الصفحة كنــت أتجه ببصــرى إلى الداخل نحــو أنفى أو فمى. وكنت هكــذا أنتظر حتى تقــول شيئًا. وكانت تقــول دائمًا شيئًا يتعلق بالصــور التى أمامنا، حتى وإن كانت كل صورة تحمــل شرحًا موجزًا بالحبر الأبيض. فعلى سبيل المثال قالت الآن: «إيمون فراموندى». «فراموندى» هــذا أنا لا أعرفه، ويمكننى أن أحرق صورته. شاهدت صورته، كان رجــلاً طويلاً، قوى البنية، أنيقًا، وربما على قدر من القناعة بأنه يستحق التصوير. أما الصورتان الأخريان، نظرًا لأنها كانت تمتلــك من الكــروت البنيّة الرقيقــة ثلاثة، فكانت تصــوّر «منزل فرامونــدى فــى فلورنسا». قلبــت السيدة الصفحــة، وكنت أنتظر كالعــادة وقالت: «مونتالى بجوار جراموفــون فراموندى». كان بالصــورة شاب منتفخ الوجنتيــن، وذو شوارب رقيقة. وفى آخر البذلــة الداكنة اللون والياقــة العريضة ورابطــة العنق، كان يبدو خُفه. وكان هو ينظر إليه فى شىء من الحيرة.

انتقلــت السيــدة إلى صفحة جديــدة وسارت علــى نفس النهج، إلا أن هــذه المرة استغرقت وقتًا أطــول، لأنها انتظرت لفترة قبل أن تقــول «. . . . زوجى». كان الرجــل يقف بمفرده مرتديًا زيّه

العسكرى فى إحدى الصور، أما فى الصور الأخرى، فكان يقف مـع بعض الجنود. كان الزّىّ العسكرى فـى عهد أسرة «سافويا» يبدو فـى الصورة، وكان معطفـه يبدو مشدودًا حـول كتفيه. أما الآخرون فكانوا منكمشين قليلاً داخل معاطفهم الجبليّة المكرمشة.

قلت لها: «رجل جميل».

فردت قائلة: «نعم، جميل فى ظاهره».

وانتظـرت دون أن أشاهد الصور. ومـن حين لاخر كنت قلقًا وآسفًا مـن أن تلحظ هى ذلك. ثم أيقنتُ أنه أمـر مستحيل، فقد كنا نجلس متجاورين.

قالـت هى: «ها هـو ذا». كانت صورته واضحـةً، وقد أمعنت النظـر كثيرًا. كان كارت الصورة أشبـه بالجواش الداكن، سميكًا وباهتًـا، وفى بعض اللحظات، ونتيجة لما كنت أبذله من مجهود، كنـت أشعر بطنين فى أذنى. قالـت السيدة فى هدوء: «كانت عيناه سوداء اللـون وواسعة وغاية فـى الجمال. مثل عينّـى «كافكا». ولكـن كانـت تروقنى العيون الزرقـاء. فإن لم تكـن زرقاء فهى ليست بأعين» وقلبت الصفحة.

لم يكن هناك معيار فـى عرضها للصور، وربما لو كان الأمر كذلك لكنت أكثـر ارتياحًا، ثم انتقلنا إلـى مشاهدة عربات مجازيّة وأقنعـة كبيرة من الورق المقوّى، وعيـد الكرنفال على كورنيش

البحر. ثم شاهدت بعض العلب المغلّفة فوق مائدة صغيرة، وقالت السيـدة: «إنها هدايـا عيد الميلاد الخاصة بى». ثـم شاهدتُ ضوءًا يرمز للعقلانية بأشعته المتعامدة والمكعّبة، يتدلى من سقف فقالت: «هذا رسمته أنا». كان بالصور رجال جذابون ومبتسمون إلى حد كبيـر، ولم تكن تذكـر أسماءهم، بل كانت تعلـق قائلة: «كان هذا يعجبنــى كثيـرًا» أو «هذا كان شاعريًا للغايــة». وهكذا كنت أكوّن فكـرة عن نوعيتــه. بوجهــه الصارم والحــاد قليلاً فــى شىء من الغموض. وقد مرت بالطبع صورتــه أيضًا، وفى مرات كثيرة، ولكن لـم أكـن أرى، ولا أستطيـع أن أقول بماذا بـررت ذلك، وفــى لحظة معينة أشارت إلى «شفتيه المائلة قليلاً». وعندما كانت تصمــت، كنت أفضّـل ألاّ أخاطر أنــا بالـكلام، وإذا كان التعليق عامّــا، مثل الذى كانت تقوله فى ذلك الوقــت، فقد قالت ببساطة: «فــى الرحلة»، فكنت أتدخل فى الحديث، ولكن دون تعجّل. فى الصــورة الأولى كانت هناك سيارة وبداخلهــا سائق. وفى الثانية كان يوجد الرجل الــذى كنت قد رأيته من قبل فى زيّه العسكرى، وهــو يرتدى ملابســ مدنية، وقدمه علــى إحدى درجــات السلم الحديــدى لصعود القطار، ويمسك فى يــده كتيبًا، قالت هى: "كان زوجى يدرس الإرشادات».

فى الصـورة الأخيرة، كانت السيارة تقف فى الخلفية عند طريق الجبل، وكانت هى تشغل الحيز الأكبر من الصورة، وهى تستند على شجرة. وعلقتْ على الصورة قائلة: «كنا فى طريقنا إلى جنوة».

وعندما كانت تقول: «الشاعر»، كنت أركّز دون مشاكل، فقد يكون «مونتالى». كان تقريبًا ودائمًا شاردًا أو عيناه تنظران إلى أسفل أو إلى أعلى، وينظر وكأن هناك قد وقعت لتوّها كارثة بسيطة يمكن التغلب عليها.

أعادت السيدة جانبًا من الصورة داخل المثلث الصغير الذى انزلقت منه إلى الخارج. وقالت: «لم يكن شديد الذكاء، أو على الأقل لم يبدُ عليه ذلك. كان يجلس صامتًا تقريبًا طوال الوقت، وعندما كان يتكلم كان يلح على نفس الأشياء. ولم يكن محاضرًا أو حتى ذواقة، كان فقط شاعرًا».

وفى صورة أخرى كانت تقف هى مع بعض الرجال، وفى خلفية الصورة إحدى مدن الشمال، وكان المنظر الطبيعى متميزًا فى الصورة الصغيرة، والتى كانت تكفى بالكاد لتشير بداخلها قائلة: «كنا هنا». ولم أفلح فى أن أفهم إذا كانت على قدر من الجمال. وكان هذا ما يثير دهشتى ويقلقنى فى ذلك الوقت.

ركزتُ ببصرى على إحدى ساقيها، التى كانت تظهر من خلال فستان طويل، كانت رقيقة ومستديرة تمامًا، ولكنها تكاد ترى. وفى صورة البحر، كان شعرها طويلاً ومبتلاً، وكانت ترتدى لباس سباحة مكشوفًا وملتصقًا بجسدها. وأشرت أنا إلى

شخصيــة نسائية شابة كانت تقــف فى الصــورة بجوارها وبجوار زوجها، فقالــت: «إنها الأخــرى». وبعد بُرْهة: «إنهــا تشبهنى، أليســ كذلك؟»، كانت تشبهها ولكنهــا كانت تفوقها قليلاً فى الطول والصلابة، كانتا تجلسان متجاورتين وبنفس الوضع. قلبت السيدة الصفحــة فجأة وواصلــت حديثها قائلــة: «هنا أتممــت دورة إتقان الرقصــ». كان يُرَى فى الصــورة قصرٌ محــاط بأشجار كثيفة. فشرعت أقول لها: «حضرتــك إذن . . .»، فأجابت: «نعم، كنت أرقص أيضًا»، قالت ذلك بصورة فجّة.

سمعتها تقول: «سيقان يُقــال فيها شعرٌ». ولم أعرف ماذا أفعل أأنظــر أم لا. ونظــرت. كانــت هنــاك صورة وحيــدة فى وسط كارت، وكانــت الخلفيــة غير واضحة، وكانت الصــورة تبدأ من الخِصــر إلى أسفل. وكانت تتسلل من داخل تنورتها، ذات الثنيات ساقــان مغطيان بجــورب أبيض تنتهيان داخل حــذاء أبيض أيضًا قصير الكعب. كانت صورة تجريدية تمامًا. كانت الساقان طويلتين وجميلتين جدًا، كما كان يشفُّ عن ذلك الجوْرب. وقرأت المكتوب أسفل الصورة، فإذا هو: «دورا ماركوس».

وفى الصفحة التالية، كانت تجلس وهى ترتدى معطفها فى أحد المقاهــى، سيدة تظهر كاملــة ووجهها ممتلئًــا بالتجاعيد وعجوز. قالت هى: «كان الجميع يركزون على النصف الأكثر جمالاً».

قلبت الصفحة الأخيرة، وكانت خالية من الصور. وطوت غلاف الألبوم، وهى تمسك بثبات اثنتين أو ثلاث صور منفصلة، والتى ظلت هناك فى الوسط. نظرت إلى يدىّ المتسختيْن بالتراب، فقالت هى: «آه، إنه التراب. لن يضرك».

كنت أشعر أيضًا بالصداع، ربما لأننى أرهقتُ عينىّ بهذه الطريقة. نهضت هى وذهبت إلى المكتبة وأعادت الألبوم إلى مكانه مع غيره. وأخذت الكتيّبات من فوق المائدة الصغيرة وأغلقتها. وسألتها؛ إذا كانت هى التى كانت تقوم بالتقاط الصوْر. فأجابت قائلة: «نعم، لقد فزت أيضًا فى بعض المسابقات». عادت السيدة إلى المائدة الصغيرة، وأخرجت منها صورة مطبوعة كبيرة جدًا. واستدارت وهى ترفعها أمامها، كان بالصورة إطار لباب مفتوح يطل على بلكونة، وكانت أشجار النخيل تظهر خلف الدرابزين. كان هناك مقعدان من الأغصان مع انعكاس لماء البحر، وكان على أحد المقعدين يوجد مئذر. وقالت السيدة: «الجائزة القومية الثانية».

ابتسمتُ أنا أيضًا وقلت لها نعم. ونهضت وذهبت نحو المائدة الصغيرة فأعطتنى الصورة مقلوبة. فأدرت الصورة. كانت بها فتاة ذات شعر طويل منساب، وكانت ترتدى تنورة قصيرة جدًا. وكانت ساقاها واضحتين تماماً وقدماها عاريتين، وكانت ذراعاها وكتفاها نحيلتين ومشدودتين، وكان عمرها يبلغ العشرين تقريبًا،

وكانـت تستند بظهرها على حائط من الزهور، تحت الضوء الجانبى لنافـذة، والذى كان ينعكس من لون السريـر الأبيض. كان وجهها يميل نحو نهديها الصغيرين والمرتفعين إلى أعلى؛ وكانت عيناها شبه مقفلتين، وكانتا تنظران إلـى أسفل فى عفة تثير السخرية، مثلما هى الحال الآن، وأنا أعيد لها الصورة ببطء دون أن أقول كلمة واحدة.

وضعتْ هى الصورة فى مكانها. ونظرتُ إلى الساعة وأيقنت أن الوقت متأخر للغاية. فقلتُ لها: «يجب أن أذهب». اتصلت بتاكسى وسألتها عن العنوان بدقة، وأنا أغطى بيدى سماعة التليفون.

قلـت لها وأنـا أغادر المنـزل: «أنا آسف». وكانـت هى تنظر إلـى ياقـة المعطـف. قالت: «هـل يجـب أن يكون طـرف واحد بالخـارج؟»، فنظرتُ أنا أيضًا وقمتُ بإعـادة شد أزرار المعطف بصورة صحيحة.

كان المطر قد توقف، وكان كل شىء بالخارج يلمع مع مرور سُحُب سريعـة وحمراء اللون بأعلى، فتعطى رؤية متناقضة. وقد طلبتُ مـن سائق السيارة أن يسرِع فى سيـره، فأخذ يتمتم ببعض العبـارات، ومع هذا نزل مسرعًا بالسيـارة من فوق التل. وعلى كورنيشـ البحر كانـت السفينة «إليـه دولرون» قـد تحركت من مكانهـا فى طريقها نحو الرحيل، وكانـت أشبه بسمكة كبيرة يظهر ثلاثة أرباع جسدها.

جريت داخــل باحة محطة السكــة الحديــد، وكان وقْع أقدامى يُحْدِثُ ضجيجًـا فوق الأرضية المطاطية، وأنــا أنظر إلى لوحات مواعيــد القطــارات دون أن أتوقف. كانت نوافــذ القطار مغلقة، وكان هنــاك بعيدًا ضوء أخضر. تعلقت بمقبض أحد أبواب القطار الذى بدأ يتحرك، وكان ناظر المحطة عائدًا إلى الخلف، فزجرنى قائلاً: «ماذا تفعل حضرتك؟».

وبقيــتُ لا أدرى كــم من الوقــت وأنــا أستند على بــاب يربط بين عربــة القطار وأخرى فى مساحة منبسطــة. وقلت فى نفسى: «هــذه الطريقة فى الجَرْى تملأ كل شــىء، ولا تترك مساحة حتى للتخيُّــل». وبعد قليل عثرت على مــكان بين مقاعد إحدى العربات التى كانت تقريبًا خالية من الركاب، نظرت إلى الخارج من نافذة العربــة، وكان ينتابنــى إحساس بــأن شيئًا ما بــدأ يتغير. قلت فى نفسى: «لقد أتيت إلى هنا لكى أفهم لماذا لا يكتب كاتب من الكُتّاب. والآن أصبحت الأمور أكثر تعقيدًا».

وإزاء الأشيــاء التى تــزداد تعقيدًا، أصبحــتُ متوترًا، وعندما يعترينى التوتر أحاول أن أخلد إلى النوم.

الفصـل الرابـع

كان البعضـ منـا يمثل بعضـ شخصيات أعمالـه الأدبية. وقد تحرر مـن ذلك تاركًا هـذه المدينة، ولكنه فقد هـذه الشخصيات، وكان ذلـك واحدة مـن خساراتـه العديدة. حضرتـك تعرف أن المؤلـف يمكـن أن يتحرّر مـن شخصياته من خـلال الحكاية، أو ربمـا لا يتحرر منها. وقد فعل معنا شيئًـا مختلفًا، ومع تقدم العمر استطعنـا أن نعرف بعضنـا بعضًا، لم يتم وصفنـا فى صفحة، كما كان معتادًا، ولكن كان يجعلنا نتحرك من خلاله. وكان يجد دائمًا نقطة يعطى من خلالها تصاعدًا للمواقف أو للأشخاص. وربما من أجـل هذا لم يعد مرة أخـرى أو أنه عاد سرًا، وعلى أية حال فنحن لم نره مرة أخرى.

كان الذيـن يكتبون هنا، يستمعون له كثيرًا، ولكنه كان يهتم بنا بصفـة خاصة، لأنه فـى نهاية الأمر شعر بضيـق تجاه الأشخاص الذين كانوا يكتبـون، وكأنه كان ينتظر منهم أكثر من ذلك، ولكن علـى صعيد آخـر، وربما أصيـب بالإحباط مـن أن يكون المرء شاعرًا ولكن ليس برجل شجاع، وكان يقول «فلان يعيش ويكتب أبياتًا جميلة، ولكن إذا كان فلان لا يعيش ليكتب أبياتًا جميلة»، فكم

تكون قبيحة أبيات فلان الذى لا يعيش ليكتب أبياتاً جميلة وربما كان يختفـى من أجل هذا. وكان يختفـى دائمًا. وكان يتعامل مع النساء كصديـق وليس كعاشـق. فالصديق يضع نفسه خـارج المنافسة، ويحتفـظ بكل الاحتمـالات دون إهدارها، بل يضعهـا فى المقدمة كضمـان، وكان إغراؤه أمـرًا عسيرًا يتطلـب الكثير من الوقت. فياله مـن صديق! وسأحدّثك عن معاملته للنسـاء، لأن ذلك الأمر يشبـه إلى حد كبير تعامله مع الكتابة، فكل شىء كان يتحرك حوله وبجانبـه، حتى وإن كنت أعتقد أن بالنسبة له كل شىء كان رئيسيًا بصورة مؤلمة. وربما تفضل لو أنه قد تم التعامل معه كشىء سفلى فـى منحنى الكتابة، أو وددت أن تجد صـورًا للدائرة أو للمركز، أو للإطار أو للامتلاءات أو للفراغات. ولكن بالنسبة له فكل شىء ربمـا يفيد فى أن يعـرف المرء كيـف يعيش، فهـو أمر جوهرى وحقيقى ومباشر، لكى يستطيع أيضًا أن يكتب. وكان قد تعلّم الكتابة على الآلة الكتابة، وذلك بكتابة عدة ورقات يوميًا. وأعتقد أنه كان يبحـث عن عمل. ثم احتفظ بعد ذلك بتلك الصفحات، وأطلق عليها «الصراع مع الآلة الكاتبةِ».

كان يحـاول أن يكتب بسرعة، أن يكتـب وكفى؛ كان يكتب ما يجول بخاطره، وكان أهم شـىء بالنسبة له هو؛ أن يملأ الأوراق بالكتابـة، كان ساخرًا وعاطفيًا . لقد كتب أيضًا: «إننى أستمتع قدر

العالــم ونصفــه» أو «إن هوسى الشهير يكمن فــى اهتمامى بشئون الآخريــن ، وذلك بسبب غياب حياتــى» . كان يبلغ فى ذلك الوقت نحــو عشرين عامًا أو أكثر قليلا ، ولكن كان من الواضح أنه سوف يكون صديقًا للكتابة، وليســ مجرد شخص يكتب . فصداقة الكتابة هى مكمــل للكتابة فقط من أجــل الأصدقاء . ويال كــم الخطابات! وكاتــب الخطابــات لا يجازف بذاته فى شــكل الخطاب ، حيث إن شــكل الخطــاب لا يكمن فيمــا هو مكتــوب ولكن فــي كونه علاقة حيــاة . إنه الكاتــب الوحيد الذى كسب بالفعــل قارئه ، وربما بجهد ليس بالهيّن ، حتى وإن كان على صعيد آخر . فقد كان ينظم الشعر كهدايــا لصديقاته؛ وكأنه كان يتخــذ الشكل لعبة لأنه كان من الجلى أنــه يعرفه . إنه لأمــر غريب ، فواحد مثله ، والــذى كتب فيما بعد كتابًــا غير مكتمل عن الرحلة الكبيرة ، واحد ساخر مثله ، كان هكذا صارمًــا لدرجة أنــه لم يحمل على محمــل الجد أو الهــزل مصيبة الشــكل . وربما قرر أن يكتب فقط ملاحظات فى نهاية الصفحات ، ولكــن المخاطرة توجــد دائمًا علــى الصفحة . بعضــ منا كان من شخصيــات كتاباته ، ثــم قام بتغيير هــؤلاء الأشخاصــ ، رغم أن البعضــ قد تصور أن فى مثل حالته لم يكن الأمر ضروريًا للغاية . وربمــا تغير هو أيضًا بعد ذلــك مع الزمن . لقد تركنــا مثلما يترك المــرء شيئًا قديمًا لا يحتمل . وأعتقد أن فــى ذلك يكمن الضيق لمن

يجدد ذاتـه باستمرار وبصـورة غير تقليديـة؛ فالماضى فى نظره يبدو مثل الجلـد الجاف الفارغ والمرفوض. وفى هذا المعنى كان هائمًـا، حتى وإن كنـت لا أستطيع أن أقول لك مـا إذا كان الخطأ يكمن هنا فى ذلك القبطان الذى كان يتساءل فى نفسه دائمًا أين أنا.

الآن أنـا فـى البحر، فـى وقت الظهيـرة، وقـد استلقيتُ فوق «الوندسـرف» والذى لم أعـرف كيف أستخدمـه بصورة جيدة. ومن حيـن لآخر كنت أغمس ذراعـىّ فى المـاء لإعطائى اتجاهًا معتـدلا، وكانت أفكارى أيضًا تتقدم نحـو الأمام بصورة متساوية تقريبًـا. كان يبـدو لى أننـى جئت إلـى «تريستة» فقـط من أجل الواجـب، ورأيتنى أعتاد على أشيـاء مثل الشوارع، بعض منها، وكذلـك بعض المقاهى وبعض الحافـلات، وتقريبًا نفس العناوين ونفس الأرقام التليفونية.

أيـام مثل هذا اليـوم كنـت أبدأها بعزيمـةٍ صابـرة على تحمل تكـرار نفس الأشياء. وهـذا الصباح أيضًا، مـا إن وصلت، حتى قمـت بالاتصالات التليفونيـة المعتادة من المحطـة. وقد أصبحت المحادثـات طويلة ومبهمة، وهو دليل على أنه لم يكن لديهم أخيرًا موضوع يُثار.

لـم أفلح فى تخيُّل هذه المدينة فى فصـل الصيف، أو ربما كنت لا أزال فـى حاجـة إلـى حماس الشهـور الباردة، ولكـن ما كان

يحزننى أيضًا، أن ملابسى كانــت مختلفة عن ملابس الناس الذين كنــت أتقابل معهــا بالطريق. فاشتريت من متجــر كبير لباس بحر ومنشفة ووضعتهما داخل سلال من أغصان الصفصاف. وسرت عبــر كورنيش البحــر نحو القلعــة، واستلقيت فــوق مجموعة من الأحجار، وأصبحت أخيرًا إنسانًا معاصرًا مثل الآخرين.

كنت فــى البداية أشاهد فقط «الوندســرف» وهو فى البحر، ثم حاولــت أن أعرف من أين ينطلق، وفــى النهاية استأجرت واحدًا منها. وقد ساعدنى البعض فى دفع «الوندسرف»؛ وأعطونى دفعة كافيــة للتحرك. وأشرت أنا لهم بيدى بــأن كل شىء يسير على ما يرام، كنت أفقد اتزانى وأميل نحو الخلف لفترة ثم حاولت استعادة تــوازن كل الأجزاء: السارى، والشراع وأنا ذاتى، وحتى عندما نجحــت فى ذلك لــم أتجاوز بضعــة أمتار، وكانــت حركتى على شكل دائرة. وفــى كل مرة أعود فيها إلى الماء أجدنى مثل عقرب الساعة أبدأ من الصفر. أسندت رأسى فوق «الوندسرف» وقد حل بــىَ الإجهاد، ورجعت إلى الشاطــئ، وسألت البعض إذا كان من الممكن جذب الشراع.

الآن أنــا مستلقٍ بظهــرى فوق «الوندسرف» بعيـدًا إلى حد ما عــن الشاطئ، والضوء البرتقالى الساخن يمر عبر جفونى النصف مغمضــة. كنت أشاهــد الطائرات المتناهيــة الصغر وهى تحلق فى

السمـــاء بلا ضجيج تقريبًا. كنت هادئًا ومسترخيًا فوق عمق لا يعلم عدد أمتاره. وهنـــا تكمن بالفعل المشكلة: كم عـــدد الأمتار؟ وماذا يوجد تحت هـــذه الأمتار؟ فهناك دائمًا لحظة، عندما أختلى بذاتى، أفكـــر فيهـــا فى مثل هذه الأشيـــاء، لا أدرى مقـــدار العمق هنا، فقد تكـــون مياهًا ضحلة أو أساسًا تحـــت الماء، والآن وأنا أسبح بقدمى ربما ألمس قطعة معدنيـــة يعلوها الصدأ، أو شبحًا مرئيًا ومتحركًا، أو ســـن جناح مهشمًا. وشعرت تحت جلد قدمى الرقيق جدًا بملمس بارد لعلبة معدنية مظلمة ومثنية، وانزلقت على جانب حطام مفقود لـــم يتم تحديـــد موقعه أو موقع ما تبقى منه بعـــد عملية غطس طويلة هكذا.

كنـــت أشعر وأنا فوق «الوندسرف» بالأمان، ولكن كنت أسير علـــى مهل. رفعت صـــدرى ورأســـى إلى أعلى، وبـــدأت أحرك ذراعـــىَّ فى الماء فيتناثر الكثير من الرذاذ، وجدّفت، وأنا مغمض العينيـــن، بـــكل مـــا أوتيت من قـــوة ورحت أركز علـــى مجهودى الجسدى حتى لا أفكر فى شىء آخر. كنت أسمع البشر تقترب دائمًا وأصبـــح الماء أكثر دفئًا، وأخذت أركل بقدمى إلى أن وصلت إلى الشاطـــئ فتوقف «الوندسرف». جلست علـــى الشاطئ وأنا أمتطى «الوندسرف». كنـــت أنظر وأنا مسرور إلـــى قدمى المنغمسة فى الماء المنخفض الصافى.

عبـرت مرة أخرى ميدان البلدية الكبير وأنا أسير دائمًا بمحازاة كورنيش البحر. دخلت مقهـى الشاطئ حيث كان عندى موعد مع «أنجلو» كان الوضع مختلفًا مقارنةً بموسم الصيف: فقد كان الجميع يرتـدون ملابس كاملـة إضافة إلى رابطة العنـق، وكانوا يقرأون الجريدة فى الضوء الخافت فى أى شهر؛ كان شعرى لا يزال مبتلاً، وكنـت أحمل المنشفة تحت ذراعى. وقـد قدمت الاعتذار عن ذلك وأن أجلس على مائدته. نهض هو بكتفيه قليلاً وقال: «كلهم موتى. المكان هنا يعج بالموتى. يائسون»، فأصدرت إشارة لأخفف عنه، ولكن كانت ابتسامته مشرقة وناعمة مثل شخصيته بالطبع.

كان هناك فى آخر المقهى بالفعل شيء غريب يحدث عند المائدة الملتف حولهـا عدد كبير من الأشخاص العجائـز، الذين يجلسون وأمامهـم بعض الأقداح، والذين كانوا يتحركون وفقًا لكل محادثة محتملـة فيما بينهم. قـال هو: . . . كانت هناك فى يـوم من الأيام مقاهٍ كثيرة. ولم يتبق منهـا الآن إلا القليل. وتوجد بعض المقاهى التى تعقد فيها اجتماعـات ثقافية. أتعرف، فى هذه المدينة يعقد فى عصـر كل يوم مؤتمران. . . « وفتح الجريدة ونظر إلى ما بها فى ذلك اليوم. سألته: «هل ستذهب إلى هناك؟». فرفع عينيه من فوق الجريدة، وابتسم ابتسامة عريضة قائلاً: «لا . . .»، طوى الجريدة عـدة مرات بعناية؛ ووضعها فى جيبـه. وأشار إلى الأوراق التى

كانت توجد على الموائد المجاورة، والمثبّتة فوق بعض الحوامل. وقال: «... كيف يمكن قراءة جريدة الآخرين؟... يجب أن تكون الجريدة ملكًا لى. فأنا لا أستطيع أن أقرأ جريدة تصفحها شخص غيرى من قبل...».

أراد هو أن يعرف أسماء الأشخاص الذين تحدثت معهم، ثم قام بالتعليق عليها فيما لا يزيد على كلمة أو اثنتين لكل شخصية. ثم ابتسم بعد ذلك قائلاً: «... وكيف حال، كيف حال الذاكرة؟...»، فكرت في المعانى التى يمكن أن يشتمل عليها السؤال، دون أن أجد معنًى صحيحًا فى حينه؛ فأشارت بإشارة مبهمة. وكان يبدو لى أن لحظات السكون التى يستغرقها كانت أقل بالمقارنة بلقائنا السابق. قال: «... هل تعرف أننى فى الماضى كنت غير قادر على تكرار شيء كنت قد قلته من قبل؟... كنت أتكلم مع شخص جديد، والذى لم يكن يستطيع معرفة ذلك، ورغم هذا كنت أشعر بالضيق...، ثم تعلمت تكرار الأحاديث. إنه لأمر جميل. وكأن المرء يتقاضى عائدًا عادلاً عما يمتلكه...، ومع هذا فإننى أذكر الشيء المكرر وكأن لا علاقة لى به...»، كنت أعتقد أنه لا ينتظر إجابة منى وبقيت صامتًا.

ومن حين لآخر كنت أشاهد بذلته ذات اللون الرمادى المتغير، أو الأرقام المكتوبة على قميصه عندما كان يأخذ السجائر من

الجاكت. سألنــي: «. . . وأين ستتناول طعام الغداء؟»، قلت: «لا أعــرف، ليس لدىّ برنامج محدد». فوضــع إصبع السبابة المثنّى أمــام فمه وقال فى حذر: «يمكن أن نتناول وجبة سمك معًا. . .»، فأجبته بالموافقة.

خرجنــا من المقهى وسرنا عبر كورنيش البحر حتى وصلنا إلى محطــة أتوبيس. وجلس هو على الجانب بجوار النافذة، وبقيت أنا واقفًا على قدمىّ؛ ومن حين لآخر كنت أنحنى لأرى طراز العمائر، والذى مــن خلاله كان يشير إلى مرورنا مــن الحى التريستى إلى الحــى الجوزيبى. ومضينا فــى ذلك الاتجاه مــن المدينة، والذى كنــت أراه «ذا طابــع يوغسلافــى». كان هــو ينظر مــن النافذة، وكانت الشوارع غير مزدحمة بالسيارات وكانت الشمس ساطعة؛ وبدأت قطرات من العرق تبلل جبينه.

نزلنا من الحافلة، وسرنا على أقدامنا لمسافة ليست بالقليلة دون أن نتكلــم، ودخلنا مطعمًا ذا تراس يقف على أعمدة خشبية، ويطل علــى شاطئ يخلو مــن البشر. قال لــى وهو يبعد بيــده ستارة من المعدن الرقيق: «هذا المكان كان دائمًا عند حسن ظنى به».

نــزع الشوك من سمكته باقتــدار، وانتظر، دون تعليق، حتى أنتهى من نزع الشوك من سمكتى. وعندما بدأت فى أكْل السمكة،

سألنــى: «. . . لذيذ؟» ، فقلت له إنه طيب المذاق ، وقلت ذلك أيضًا لمدير المطعم الذى جاء ليستطلع الأمر. وأخذا يتحدثان فيما بينهما ويضحكان وهما يرفعان أكتافهما إلى أعلى. ونظرت أنا إلى المرأة ذات القبعــة على رأسهــا ، وهى تضرب الجمبــرى بشفرة السكين فوق أُورمة جزار.

استأنــفَ حديثه معى عن الأمراض التــى كان قد فرغ لتوّه من حديثــه عنها مع مديــر المطعم. وقال: «. . . لقــد تزوجت فى سن متأخرة ، وماتت زوجتى منذ بضع سنوات. . . ومع هذا أسير إلى الأمام كسفينــة مصابة بصاروخ فى بطنهــا. . .». ضحك ضحكة عريضة ثم شرب. «. . . هذا الصباح اتصلت بى صديقة» ، سأذهب إلــى الصين من خــلال رحلة منظمــة «. . . هل ترى أنــه يمكننى الذهــاب إلى الصيــن»؟ «فقلت: حسنًــا ، نعم». ثم أضــاف قائلاً: «. . . لكنى أود أن أذهب إلى منزل صينى ، وأن آكل مع الصينيين وأن أذهــب معهم إلى السينما. . . المتاحف ترهقنى ، وهناك أشياء كثيــرة تستحق الرؤية مثل شاطئ البحــر فى الصيف ومن الصعب الاختيــار ، فضلاً عن أننى غير متأكد من أنهم لن ينظروا إلىّ أثناء مشاهدتــى للوحات ، فلابد أن يكون لدى المــرء شىء يفعله عندما يذهب إلى الخارج ، يجب على المرء أن يذهب إلى هناك من خلال عمل ، وليس من أجل الترفية. إذن من المعقول» ونظر إلىّ قائلاً:

«. . . هل تعتقد حضرتك أن لدىّ شيئًا أعمله فى الصين؟»، فأجبت قائلاً: «لا أدرى، فالصين بلد شاسع جدًا».

كان يدخّن وذراعيه متشابكان، وكان يتابع حركة الأمواج المنخفضة حول أعمدة التراس. وبقيت أنا صامتًا. ورغم التفاوت البسيط بينى وبينه فإننى كنت أعتقد بوجود ما يجب أن يوجد بين شخصين تناولا طعام الغداء معًا. قال هو: «. . . لو وضعت يدىّ فى الماء. . . هل تتخيل حضرتك؟ إنه شىء ما يبدأ هنا وينتهى فى القاهرة أو طرابلس أو طنجة، حيث قد يوجد شخص آخر على الشاطئ يجلس واضعًا يديه فى الماء. نعم، أعتقد أن هذا هو أسلوبى فى السفر. . .»، اعترانى إحساس جاد بالحديث عن نفسى بصراحة؛ أو على الأقل أن أقول شيئًا صادقًا عن الترحال. وتمنيت بعد ذلك، وكالمعتاد، أنه من خلال الإشارات ونبرة الصوت سوف أوحى إليه بأكثر مما كنت أتخيل. وعندما أصر هو على دفع الحساب، فكرت فى كيفية تقديره، على المستوى الاقتصادى لليوم الذى قضاه معى، للمال والوقت اللذين أهدرهما فى هذه المناسبة.

ومع عودتى سيرًا على الأقدام عبر كورنيش البحر، تحدثت معه كثيرًا. وقطع هو حديثى فقط عندما اقتربنا من فتاتين. وسرنا

خلفهما عن قرب؛ وكان هو يصف، فى صوت خافت، الفرق بين النساء السلافيات والإيطاليات. وكانت له ابتسامة شبه طفولية.

ووصلنا بالحافلة إلى وسط المدينة؛ وانتظرنا عند نفس المحطة وصول الحافلة التى سوف يستقلها هو ليعود إلى منزله. صعد الحافلة وهو يمسك الباب بكلتا يديه، وكان يبدو قصيرًا وثقيلاً فى حركته. وقبل أن يغلق السائق الباب، استدار وابتسم وتنهّد ثم ألقى إلىّ بالتحية مرة أخرى من خلال زجاج الحافلة التى كانت قد برحت المكان.

حانت اللحظة التى لم أعد أشعر فيها باستغراب الآخرين من رؤيتى هنا. فقد كانت المدينة فى جانب منها مألوفة، وفى الجانب الآخر تبدو غريبة، أى أنها كانت مريحة، وفى ذات الوقت لا يمكن وصفها مثل أى مدينة أخرى. سوف أكف، فى المستقبل، عن المجىء إليها دون أن أقرر ذلك، مع تأجيلى للمجىء من أسبوع إلى آخر، وفى صباح اليوم المحدد للسفر سوف أستيقظ متأخرًا جدًا لكى أستقل القطار، وفى الأيام التالية سوف أكون قد اقتنعت تقريبًا بالبقاء بها. وحتى القلق اليسير الذى انتابنى لعدم فهمى لبعض الأمور سوف يختفى تمامًا.

وبدا لى أننى أسير عبر طريق يعبر بى من الأوراق إلى التجربة العملية، رغم عدم معرفتى بنوع هذا الطريق. ومن

المحتمل أن أبدأ من الأسماء اللامعة فى الصفحات، بصورة أفقية، والتى أصبحت الآن أسماء خالصة، مجردة ومؤثرة؛ ثم سأتجه بعد ذلك نحو الحجم الكبير والمزدوج والذى نزعت منه فى لحظة إعادة الكتابة. وسوف أبحث مرة أخرى فى مسألة الأوراق مع اختراعى، من جديد، لزوايا التصوير. وربما، إنه من الحقيقى أنه لا توجد الرحلة أو الحج، ولكن فقط التأرجح مثل أيامى التى تستمر من الصباح إلى المساء، وهى محاطة ومغطاة بالنوم. وربما كان من الممكن أن أقول ذلك «لأنجلو» عندما تحدث عن طرق السفر. وهكذا ونتيجة لاستغراقى فى الورق، كنت أشاهد المرأة التى كانت تسير هنا وهناك بميدان البلدية وكنت أعتقد، لأول وهلة، أن ما يحدث ما هو إلا تهيؤات. كانت المرأة فى ريعان شبابها، ولكن ملابسها كانت كلاسيكية: فقد كانت ترتدى بلوزة مدبدبة ومثبتة من خلال دبوس عند عنقها، وكانت ترتدى تنورة طويلة مزركشة، وكانت الزركشة محاطة بشريط ملون. وكانت خطواتها تسير وفقًا لردائها وللقبعة التى كانت على رأسها؛ كانت تحرك مظلتها الصغيرة هنا وهناك، وكانت تتمايل لتجذب الأنظار إليها وكنا جميعًا نشاهدها. ولكن كان من المريح الاعتقاد بأنه لا يوجد لدىّ أى حنين على الإطلاق يربطنى بهذه المدينة.

اتصلت عبر الهاتف بالسيدة صاحبة البركار لأحييها. فقال لى: «هل عندك وقت لتناول قدح من الشاى؟»، وبعد أن ذهبت إليها

فــى منزلها، قالت لى مرة أخرى: «هل تأتــى معى لنعد الشاى؟» فدلفـت إلــى داخل مطبخ كبيــر ذى أرفف خاليــة؛ كل رفٍّ مضاء بضوء خاص ومحدد، وضلفات زجاجية معتمة لا تسمح برؤية أى قطعــة بداخلها. وبينما كانت تعد الشاى قلت لها: «يروقنى أن أقوم بالطهــو هنا»، فردت قائلة: «هل حضرتــك طاهٍ؟» فأجبت ضاحكًا «بــلا». «ولكن يروقنى شراء الخضروات ومشاهدة مدى نضارة الأوراق فوق موائد العرض المختلفة، ثم العودة إلى الخلف، حيث توجد الخضروات الطازجة فأقوم بفرزها واحدة تلو الأخرى، ثم أتناقشــ مع البائع حــول الأسعار». فقالت هــى: «ولم؟». فقلت: «فى المدينة التى أعيش بها مناقشة كل شىء يعد نوعًا من الواجب، وكثيــرون يصفون ذلك بأنــه دليل على أنه مازالــت توجد علاقة إنسانيــة». أنا أركز بصورة أكبر على المشتروات دون الاكتراث بالأخبــار ذات الطابــع الشخصى، وما يعنينى هو فــن شراء أشياء عاديــة وكأنها غير عاديــة، وكأنها أعطيت لك، ليــس لأنك تدفع ثمنها ولكن «لأنك بالفعل تستحقها».

وضعــت السيدة إبريق الشاى على المائــدة مع الأكواب وقطع البسكويــت. جلست ثم قالت: «وبعد شــراء الخضروات ماذا تفعل بها؟»، فقلت أقوم بتنظيفها وأتركها فى الماء طوال فترة الظهيرة، ثم أجلس أمام تليفزيون صغير حتى يتم طهوها.

فقالــت لى: «هل حضرتك نباتى؟». لم أكــن أتصور أن مسألة الخضروات سوف تأخذ كل هذا البعد، وأجدنى الآن أسيرًا لمقارنة معقــدة بيــن طهو اللحــوم وطهو الخضــروات ومعلقًا فــى الفراغ بــلا أفكار. وفى النهايــة قلت لها: «هناك توازن تــام بين الألياف والماء».

انفجــرت ضاحكة، ثم قالــت فى جدية: «وهل مــن الممكن أن تكــون مســرورًا؟»، رفعتُ كتفــىّ إلى أعلى وقلــت: «لا أدرى، فدورة الطهو تستمر طوال اليوم».

هــزت هى رأسها قائلة: «لا، لم أكن أقصد أن أقول . . . . على سبيل المثــال، كيف تعد الطعام لحضرتك فقــط؟»، فأجبت قائلاً: «بشىء مــن الدقة». فألحــت قائلة: «كما لو كان هنــاك آخرون؟ بوضْــع مفرش على المائدة والخبز المقطــع داخل سلة؟». أمعنت التفكير قليلاً، ثم أشرت بصورة مختصرة قائلاً: «أعتقد أنه يجب أن نكون رسميين عندما نــأكل بمفردنا». فقالت هى: «إذن حضرتك تعــد أولاً كل شــىء وتضعه على المائــدة؛ ولا تنهض فى كل مرة لتأخــذ من الثلاجة ما تحتاج إليــه وتأكله هكذا كما هو؟». فقلت لها: «كيــف يكون ذلــك، وأنا أمضيــت لتوّى فترة الظهيــرة فى إعداد الخضروات؟». ثم أضفــت قائلاً: إن الأمر يتوقف على الظروف

لا أعرف. «وهـل تشاهد التليفزيون وأنت تأكل؟». فقلت: «نعم، اتـرك التليفزيون يعمل ولكن بلا صوت. فأنا أستمتع به مثلما كنت أستمتع بالموسيقى، إلا أننى الآن أفضّل رؤية المشاهدة عن بعد».

تناولنا الشاى فى صمت. ثم قالت فى هدوء جمٍّ: «لم أتعوّد على الجلوس على مائدة الطعام بمفردى ولا علـى مشاهدة التليفزيون وأنا أتناول الطعام. . . فأنا لا أفلح فى الاستمتاع بالتليفزيون بسبب ضجيـج أدوات المائدة. وأتصـور أننى أرى نفسـى عندما آكل، وعندئـذ يبدو لى أن الوقت لا يمر أبـدًا. . . فلو لم تكن لدىّ المرأة التى تعـد كل شىء، أعتقد أننى قـد آكل أى شىء، وأنا واقفة على قدمى وكفى». وظلت لبرهة غارقة فـى التفكير، ثم قالت: «أيضًا الدخـول إلـى أى غرفة ورؤيتـى أن أحدًا لمس شيئًـا. . . ولكنى أرحلُ دائمًا إلى مدن أخرى. . .».

شعرت أن الحديـث بدأ يأخذ منعطفًا آخـر، وربما كنت أفضل أن أظل محاصرا داخل المطبخ. ومع حديثنا عن المدن، أصبحت أكثر ودًا وصفاءً، أو ربمـا نتيجة لرفاهية الموضوعات، أو نتيجة للوهم الذى يعيش فيه المرء لوجود الأشياء من أجله ومعه.

وكنـت سأبقى لأواصـل الحديث معهـا، ولكن موعـد القطار داهمنى.

وفــى القطار كانت هنــاك ثلاثة أمور ، ربما مــن نفس النوع ، حتــى وإن كنت لــم أفلح فى فهمهــا . أما الأمــر الأول فكان لطفل يحــرك قطــاره الصغيــر المصنــوع مــن البلاستيــك هنــا وهناك ويصطدم بالزجاج ، وربما كان بذلــك يحقق سعادته الطفولية من وجوده داخــل القطار ، والاستمرار فى التحكــم فيه من الخارج . كان منهمــكًا فى لهوه ، ولكن ربما كان القطــار اللعبة يعوّضه عن عدم رؤية القطار الحقيقى من الخارج . كان الطفل يستخدم القطار اللعبــة بتلقائية وبالطريقــة الصحيحة كما هى الحــال لقطار صغير داخل قطار كبير .

أما الأمــر الثانى فهو ، أن الطفل وأمه وأنــا كنا فى هذا الجانب من القطــار السريع القديم ، والذى كان يبــدو كأنه صالون صغير بــه ثلاث أو أربع فوتيهات وشرفة من الخشب الفاتح ، والتى ربما كانت بــارًا فى يوم من الأيــام ، أم الآن فهى خاليــة . فالقطارات الجميلة هى التى يوجد بها بعض العربات على هيئة منزل ، فالأثاث متحرك بالفعل ، مثل الثابت ذاته ، وبالتالى كل شىء يمكن تحريكه وسفــره ، لكن موضع الأثاث لا يتغيــر ولا يمكن سفره ، فهو يظل ثابتًا فى مكانه كما هى الحال فى المنزل .

وأخيرًا، وعندما مررنا بالجزء الضيق بين الصخور والبحر، عند مخرج المدينة، وأضاءت ومضة ضوء نافذة القطار، ورسمت لبرهة، على الأرض ما يحيط بالأشياء. شاهدت من خارج النافذة المنارة البيضـاء الأثرية: كان من الممكـن تخيُّل خط ذلك الضوء الخاطف الـذى يصل إلى العين من البحـر، وكيف يمكن التعرف عليـه من تكرار الحدث ونوعه ولـون الضوء. فالبحار يتبع ضوء المنارة من خـلال حساب المسافة باستمـرار، وأعتقد أنها طريقة طيبـة أن يقوم البحار بالاقتراب مـن الأشياء، وذلك بقياس مقدار البعد. وشاهـد الطفل أيضًا فـى انبهار المنارة، ورأيـت أنا عينيه مـن الجانب، كانت عيناه الصافية وحدقتها المستديرة أشبه بكارت دعـوة ملـون يقف خلف شريحـة زجاجية. إن عـدم وجود شىء يُرَى على الإطلاق داخل العين يصيب المرء دائمًا برجفة يسيرة. لذا أغمضت عينىّ وخلدت إلى النوم.

الفصل الخامس

انطفأت الكتابات المضيئة الآن، وذكر صوت المضيفة الأتوماتيكى أين وكيف يمكن التدخين، قمت بفك حزام الأمان، ودفعت مسند المقعد إلى الخلف برفق، بين الأيادى التى كانت ترتفع لضبط فتحات الهواء البارد وغير الطبيعى، أو لإشعال السجائر «أخيرًا»، أو التى كانت تبحث فى جيب المقعد الأمامى عن أى شىء لقراءته، حتى كتيبات الإعلانات الداخلية بصورها الظليّة وأطواق النجاة.

عندما تكون الطائرة هكذا كبيرة، وبها أقسام مغطاة بالستائر، وعندما يكون صوت محركاتها يكاد يسمع، ونوافذها صغيرة للغاية وبعيدة عن الصف الرئيسى الذى أجلس فيه، فإن هذا ربما يعنى أن هناك فى نهايتها أى شىء آخر.

وفى الأمام بعيدًا، ومن خلال الضوء الأزرق والرمادى لكابينة القيادة، كان القائد، الذى ذُكر اسمه لنا، يشاهد على لوحة التحكم كرة الأفق الصناعى الصغيرة، والتى كانت تعود ببطء إلى الاتجاه الأفقى، بما يتفق مع الماكيت المصمم للطائرة، ومع الطائرة ذاتها،

وكلاهمـا فى رحلة طيـران منتظمـة ومستقيمة بعـد صعود طويل (عندما مرّت المضيفة عبر ممر الطائرة بخطوات بطيئة) . وسوف يتخذ القائـد أو مساعده الاتجاه 292، وهو بمثابة إقلاع مثالى فوق البحـر من مطـار «فيوميتشينـو» بروما؛ وبعد أربعيـن ميلاسوف يتجهان نحو اليمين تجاه النقطة «Alpha» لنحو 23 درجة، وهو ما يلزم للسير فى الطريق المثالى، والذى تم تحريكه نحو 315 درجة بالنسبة للشمـال المغناطيسى، وهو إشارة عاليـة التردد، وبالتالى فهى لا تتأثر بسوء الأحوال الجوية، وهى علامة توجد بين المحطة «Vor dell'Elba» ومقدمـة الطائـرة. وسـوف يحرصان على الالتزام بالطيران بصورة فعلية وفقًا للاتجاه، المثالى بسرعة 800 كيلو متر فى الساعة، وعلـى ارتفاع 31000 قدم، وسوف يتبعان الأرقـام المتناقصة على الـDme، وهـو مقياس المسافة من Vor إلى الصفر، الذى ظهر بوضوح فوق المحطة «Elba». وبعد ذلك وبالاتجـاه نحو اليســار بزاوية قدرها 7 درجـات فقط، وهى هكذا يسيـرة لدرجـة أن لا أحد منا سوف يشعر بذلـك، وسوف تأخذان الاتجـاه الجديد 322، والذى يتحرك مـن ذراع القيادة حتى Vor di Torino. وعلى أية حـال فإن الطائرات التى تحلق فى السماء تطيـر وفقًا لهذه الخطوط ما بين محطات متباعدة ومرتبطة ببعضها مثل عربات وسائل النقل المعلقة.

وسـوف يفحص القائـد أو ربما مساعده النقـاط المتوسطة، وسوف يفتح الخريطـة ويراجع المسافـات الجزئية: 25 ميـلا بين «Mauro» و«Corner»، و 55 بيـن «Corner» و «Yankee»، ومـا يشبه مثلثًـا صغيـرًا تخيليًا يقـع بعد جنوب مدينــة «جنـوة» بقليل. وهذه الخريطة ما هى إلا جزء من خريطة أوربا الوسطى، والتى بدورها تشــكل جزءًا من خريطــة الملاحة الجوية الدوليــة. وهذه الخريطة تستند إلى «خريطة مركاتورى» القديمة، وهى الخريطة التى تقوم عليهـا كل الخرائط الأخـرى، حيث يمكن تصـور مسقط الأرض فوق عمود تماس دائرة خط الاستواء، والذى فوقه يتم تكوير العالم المقطع بالمقص وفـرده بعد ذلك بصـورة متساوية. وداوائر خط الطول تظـل متساوية الأبعاد، وخطوط التوازى تنثنى فى احتداب نحو القطبيـن، وهما فمّان مبتسمـان دائمًا بصـورة أكبر فى شمال الكـرة الأرضية، وأكثر حزنًـا دائمًا فى جنوبهـا. ولكن «خريطة مركاتـورى» ليســت تصورًا هندسيًـا، دائما تم ابتكارهـا بناء على حسـاب دقيق وعلـى مسائل رياضيــة متقنة إلى حـد كبير. والاسم الثانى لهذه الخريطة هو «تصور».

وبعــد طــىّ الخريطــة ســوف يكونـان قـد انتهيا مـن مراجعة «رومـا»، ليستعدا لمراجعــة «ميلانو» رغم بُعــد المسافة بينهما. وسوف يلقيان بالتحيــة المختصرة المرسومة على جناح الطائرة، وهــى I–DOFN؛ وهـذا الاختصار يمكن تصـوره هكذا:India

Delta Oscar Foxtrot Novembre ، ومـن ناحيـة أخرى قد يقيِّم البعض سلامة نطق هذه الصيغة.

وبعـد ذلك سوف يختاران خط:Vpr do St[rex ، وهى نقطة بعيـدة عن «مونتى بيانكو»، وسوف يتـم تغيير الاتجاه بقدر يسير يصـل إلى تسع درجات نحـو اليمين، وهى رحلـة مستقيمة الخط تقريبًـا، حتى وإن كانت لا تتبع على الإطلاق فى مسارها خطوط الطـول، كمـا كان يحـدث فى الماضـى. وفـوق Vor سيقومان بضبـط الآلات من جديـد مع الإحساس بالرضـاء، لأنها تؤدى تحـركات محسوبة فيما يتعلـق بمفاتيح الضبط فـى الوسط، تحت مقياسـ سرعة الرياح، والأفق الصناعـى ومقياس الارتفاعات، وسوف يضبطان الآلة المتعددة الوظائف، والتى تحول الإشارات الإذاعية إلى تصوير بالرسم للموقف. وهناك سوف يصبح الاتجاه مرئيًـا فى كل مـرة مثل مؤشر رأس، عبارة عـن شريط برتقالى اللـون على اليمين، وهنـاك بالتحديد سوف ينظـران إلى عينيهما ويتأكـدان أن علامة الطائرة موازية دائمًـا للشريط، وبالتالى كل شىء فى مساره.

ومـن المؤكد أن ذلـك يمكن أن يحدث أيضًـا الآن وهنا أيضًا، مثلما يحـدث دائمًا. تعطل بعض الأجهزة التى يمكن الحصول من

خلالها على إشارات غير مباشرة دون أن يدركا ذلك، طلبَ برج المراقبة بجنيف تخفيض الارتفاع للحفاظ على البعد الرأسى مع طائرة أخرى، سوء الأحوال الجوية بين سحب «مونتى بيانكو» التى تقترب منها الآن الطائرة، ومع سوء الأحوال الجوية يحدث انخفاض مفاجئ للضغط، ويصبح الجو فجأة أقل كثافة كما هى الحال عند الطيران على ارتفاع عالٍ، ويتأثر جهاز قياس الارتفاع بذلك، حيث إنه يعمل وفقًا للضغط الخارجى وليس الارتفاع، وقد يشير إلى أرقام تخيلية وغير واقعية. ويطير قائد الطائرة بين السحب والأمطار على ارتفاع أقل من 18500 قدم، والذي تشير إليه الخريطة هنا كحد أدنى للعبور فوق قمة «ونتى بيانكو» بمسافة طيبة. وسوف يمرقون من بين السحب فى سرعة فائقة، تصل إلى 800 كيلو متر فى الساعة بمقياس السرعة على الأرض، فالوقت لا يتجزأ مع أى حركة، وربما يلمحان فيما وراء الزجاج الأمامى للطائرات والمساحات التى تتحرك بسرعة فائقة، كتلة داكنة وبيضاء، وسوف تظل هذه الصورة المتوترة بسبب الأدرينالين فى عينيهما، إذا كان حقًا أن شبكية العين تحتفظ بآخر رؤية.

والأمر بالنسبة لنا ليس إلا دويًا قويًا، قويًا جدًا، بل قوى للغاية لدرجة أن الخسائر يمكن تعويضها أيضًا فى هذه المرة. لننظر. لا، لم نشاهد شيئًا، ولم نلمح ضوء الطائرة، وكنا جميعًا، بما فى

ذلـك النظارات، تتقدم إلى الأمـام بسرعة تصل إلى 490 ميلا فى الساعة، بينما كل شيء بالخارج وحولنا يبدو ساكنًا كالمعتاد.

وهنـاك وجهة نظر أخرى يجـب توضيحها وهـى؛ مسألة فنية تعقـب ما سبق، وهى أن صدامنا بشيء قريب يوصف ببساطة بأنه G 20 ، أو G 22، أى اثنان وعشرون ضعف جاذبيتنا الجسدية، ومـع هـذا الضغـط فـإن المساحـات بيـن الخلايا سـوف تتحول بصـورة ملموسة، وذلك بزيـادة أو بضغط المسافـات فى تحوُّل عـام للتلاصق، إلى استعـداد غير معروف، وفـى النهاية سوف يتعلـق الأمر بثورة صغيرة لمظهرى العام، فى بحر من القمصان والبيجامات والحقائب.

وعلى العكـس فإن «مونتـى بيانكو» كان بعيدًا جـدًا، وقد بلغ القائـد ومساعـده بـل وتجـاوزا:، Chatillon ، Boulogne Vordi Rolampont، والآن ونحـن فوق بحر المانش يقومان بتعديـل ميل الطائرة الناجم عـن الرياح بدقـة، وأصبح كل شيء تحت السيطـرة النهائية فى اتجاه مطار «هيثـرو» بلندن. وسوف يتخـذ الاتجاه 289، وهو مدخل مثالـى لمن يأتى من هذا الجانب، ثـم سيضبطان آلة القيـادة على القراءة صفـر، عندما يكون الخط

الإحداثــي متعامدا تمامًا على الخــط الرأسي. وسوف ينظران إلى المؤشــرات ويستمعان إلى صوت «بيب بيب» المستمر وسيعرفان أنهما على طريـق الهبوط بصورة تامة، ودائمًــا إلى أسفل رويدًا رويدًا وبثبات أكثر إلــى أن وصلا إلى الممر، حيث تبدأ العلامة، وتتوقف عند المرور فوقها.

ثم هبطنا كالمعتاد: وَثَبْتُ إلى أعلى وتنفستُ الصعداء.

سرتُ خلــف الآخرين عبر أنبوبة الخروج مــن الطائرة، وأنا تحدونــي الحيرة لوجــودى فى مــكان مختلف عن مــكان السفر. عبرنــا فى سكون الأنابيب الصفراء والمضيئة بصورة غير أفقية، كما هو المعتــاد فى أى مكان آخر: فى المطار أو المدينة أو بالنسبة للضــوء ذاته. انتظرنــا فى ساحــة الحقائب، وأخذنــا ننظر جميعًا إلــى الحقيبــة المنسية التى كانــت تدور فوق سيــر الحقائب، وبعد لحظــات أصبحــت لا تُرَى مــع تدفق جديد للحقائــب. مررت من مكتب الجــوازات واتبعــت الإرشادات؛ ومــع كل منعطف كانت مجموعــة الركاب تتفرع وكأنهم شجــرة العائلة. بقيت ساكنًا فوق البساط المتحرك، وذلك بعــد الهبوط من فوق السلالم المتحركة؛ وواصلت النزول حتى بلغت مترو الأنفاق. وقفت أمام لوحة ذات خريطــة لخطوط المترو، وحددت طريقى عبر الجوانب اليسارية والجنوبية للوحة.

كان هنـاك رواق أخير يوجد بعد متـرو الأنفاق الذى يسير فى الهواء الطلق فى ضوء الغروب الخافت مع تعاقب اللونين الأخضر والبنى للضاحية والمنازل.

قمـت بتغيير المتـرو عند محطة «إرلز كـورت»، وسرت فى طابور جديد مع أناس عائدين من عملهم، وكان فى داخل الطابور فتيـان من الشواذ وزنجـى كان ينظر إلى بشـرة وجهه من خلال مـرآة صغيرة، وكان من الجلىّ أنـه لا يعنيه من أين قدمت أو من الأفضـل أن أقول إنه لم يهمه على الإطلاق أن أكون قد قدمت من أى مكان فى العالم.

وعندما وصلت إلى حديقة ويمبلـدون، نهضت ونزلت وبقيت لحظـة فوق رصيف المحطة المكشوفـة والمنخفضة، بين تلين من الأشجار ارتقيت مجموعة من السلالم، فإذا بى فى طريق هادئ به فيلات وبعض المتاجر. كان هـو الطريق الذى تسكن فيه. سألت إذا كان يوجد فندق؛ فنظر الفتى حوله كما لو كان عليه أن يلمحه من موضعه ثم قال: «لا. يجـب عليك الذهاب إلى مدينة ويمبلدون». عدت مرة أخرى إلى المحطة الصغيرة وقد اعترتنى الدهشة لبضع لحظـات، ومرت علىّ الأولى منها وكأنهـا ساعات، أمضيتها فى الهواء الطلق وفى ضوء النهار المتبقى.

كانــت ويمبلدون هى المحطــة التالية، حيــث ينتهى خط مترو الأنفاق وحيث توجد الصدادات. أوقفت تاكسيًا وسألت السائق عن فندق، فسلك طريقًا به فيلات صغيرة بلا متاجر، ولكنهمشابه تمامًا لطريــق ويمبلدون بارك، وربما يكون مشابهًا لأى طريق فى كل ضاحيــة لندنية تــم تحديثها فى عهد الملكــة فيكتوريا. وكان الفندق عبارة عن واحدة من الفيلات. قرعت الجرس، وقلت: «أود... إلــخ»... ســرت خلف فتــاة عبر درجــات سلم، ومــررت أمام حجرة للجلوس كانت الإضاءة بها منخفضة، والتليفزيون مفتوحًا. ووصلنا إلى الدور المقصود، وفتحت الباب وتركتنى داخل حجرة كبيــرة جدًا ومريحة، ولكن لم يكن لــدىّ الوقت لأشاهدها. وعلى العكس أخرجت بعض الأشياء وخرجت من الحجرة، ودلفت إلى التواليــت فوجدت به حوضًا للاستحمام بيــن جدران مطلية بطلاء لامع، فملأ حوضــ الاستحمام بالماء حتى حافته، وفكرت فى أن آخذ «حمامًا رائعًا».

بقيــت مستلقيًــا داخل حوضــ الاستحمــام، وكان بخــار الماء الدافــئ يحيطنى من كل جانب، وكنــت أتطلع إلى الرسومات التى تتكون على سقــف الحمام من جراء تكثيف المــاء الدافئ. ورأيت سلــك الإضاءة الرقيق، فرفعت ذراعــىّ وجذبته. فحل الظلام ثم الضوء. وجذبت السلك مرة أخرى، كانتتروقنى طقطقته المرنة،

بل والمرنة جدًا بسبب طـول السلك؛ كان يروقنى الدفء المتناغم مع الظلام.

وعندمـا استيقظـت كان المـاء قد أصبـح بـاردًا، وكان هناك انعكاسـ لضوء نيـون يأتـى دون أن أدرى من أيـن. بحثت عن سلك الضوء فـى الفراغ وبحثت أيضًا عن ساعـة اليد التى كنت قد تركتها على أرضية التواليت: كان الأمر فظيعًا. جففتُ جسدى فى عجالـة، وعدت إلى حجرتى، وارتديـت قميصًاوبنطالاً نظيفين. كان صـوت التليفزيون بالدور الأرضى لا يـزال يُسمع. ودلفت إلى المطبخ وكانت الفتاة بداخله. لم تكن بالفعل فتاة، ولكنها كانت امـرأة فى ريعان شبابها من نوعية النسـاء اللاتى يبدين دائمًا كفتاة صغيرة: مع وجود انحناءة بظهرها النحيل بارز العظام، وخطين مـن التجاعيد على جانبـى فمها. قلت لها: «هل يمكننـى أن أتناول قليلا مـن اللبن؟»، فابتسمت هى، وجففت يديهـا وأحضرت اللبن من داخـل الثلاجة وصبته داخل كوب كبير: فأشرت لها بأنه يكفى هذا. ربما كان علىّ أن أقول شيئًا آخر، ولكننى كنت متعبًا إلى حد كبيـر، بالإضافة إلى أنه من غير المؤكد أنهم لم يشعروا بالإغماءة التـى تعرضت لها داخل حوض الاستحمـام. وشرعت هكذا أسير أمام بـاب المطبخ، وكأننى كنـت أريد أن أشاهـد شيئًا بالخارج،

وعلى العكس ساقتنى قدماى ، وأنا أحمل كوب اللبن ، رويدًا رويدًا نحو الحجرة التى يوجد بها التليفزيون .

تبادلتُ التحية مع الفتى الجالس على المقعد ، ثم شاهدنا فى صمت سباقات الخيول وانتصار «جوجو دانس» ، وهو الاسم الذى كان المعلق يردده (مع عرض غطاء لرأس الجواد) بصورة هستيرية «ج– ج – دان». كانت تجعلنا نزداد حماسًا مع عدو الخيل .

لم يكن الفتى أيضًا شابًا بالفعل رغم شعره الأصفر الطويل ، وأسلوبه المتحفِّظ . وقد نهض بعد قليل من الوقت ، وألقى إلىّ بتحية هادئة وخرج .

عاد الفتى على الفور ، وقال لى وهو يستند على الباب : «هل تعرف كيف تطفئ التليفزيون؟» . قلت نعم ، رغم أنه كان يمكننى أن أعلّمه ذلك وانصرف من الغرفة . وعلى العكس تابعتُ فى هدوء سباقات : «ليكستر ، كينسنجتون ، فينكلى ، ست جيمس» ، وأنا غير قادر على الاستمتاع بها أو النهوض ومغادرة المكان .

بقيتُ بالغرفة حتى انتهاء البرامج التليفزيونية ، ثم أطفأت التليفزيون وكل الأضواء التى صادفتنى وأنا أصعد درجات السلم ، وذلك من تلقاء ذاتى بعد أن طلب منى الفتى إغلاق التليفزيون .

وفـى داخل غرفتى فضلت أن أنـام على السرير الفردى ، وبحثت داخل الدولاب عن «كوفرته» مـن الصوف وتركتها ملفوفة فوق «الكوفرتة» القطنية عند موضع قدمى.

وبعد فترة فتحتُ رواية تعج بنقاط توقف بين الكلمة والأخرى ، وكانـت هذه النقاط التى تظهر بين الحين والآخر ، أشبه بفراغ فى المعـدة أو كأننى أعبر قناة مائية بسيارة. ولم أكن لأعود إلى أسفل مـن فوق هذه العوائق ، ولأول مرة يغالبنـى النعاس وأنا أقرأ هذا الكتاب فوق السرير.

واستيقظـتُ مع ضوء الشمس الدافئ الذى تسلل إلى الغرفة عبر غـلالات النافذة، وكان ينتابنـى إحساس بأننى قد حلمت بأحلام لا تمـت إلىّ بصلة، ولكنها أحلام خاصة بغرفة النوم تركها مئات من الحالمين السابقين. بقيـت مستلقيًا ونظرت فى ثبات وأنا قابع فوق السريـر إلى ضوء المصباح الذى لم أكـن قد رأيته مساء أمس. ثم نهضت واقفًا وتمددت بجسدى إلى أعلى لأزيح جانبًا ستارة النافذة الصغيرة حتى أتمكن من فتحها، وأطللتُ برأسى ونظرت بمحازاة أحجار القرميـد: شاهدت بالخارج بعض الحدائـق والمنازل، ثم وسـط مدينة ويمبلـدون وبعيدًا كان يُرى منحنـى النهر الكبير، ثم بعض مبانى المدينة وكانت تبدو ضبابية متناهية البعد.

نزلت إلى أسفل، وفصلت غلاية الشاى عن السلك الكهربائى، وقمت بغسلها فى الحوض، وكنت قلقًا بسبب القشور الجيرية التى كانت تخرج منها. وضعت الغلاية على المائدة الصغيرة وأعدت توصيل الفيشة الكهربائية الثلاثية ذات الحجم الكبير والتى تروقنى لقدرتها على التحمّل.

ورغم أننى اغتسلت وحلقت ذقنى وانتظرت حتى يغلى ماء الغلاية ووضعت كيس الشاى الصغير فى الكوب، وانتظرت حتى يتلوّن الماء بلون الشاى، ورغم أننى فى تلك الأثناء، وأنا أخشى دائمًا من تلك الأثناء، ارتديت ملابسى، فإن كل هذه الحركات التى كان يجب أن أقوم بها بقليل من التركيز، رغم عشقى لسرعة الحركة، فقد كانت بطيئة ليس بسبب البطء الذى يسود الصباح فحسب، ولكن كان بسبب رغبتى فى إبعاد فكرة راسخة فى ذهنى وهى؛ أننى«سأتعرف عليها اليوم». كانت الفكرة تنقسم إلى فكرتين متعارضتين بالنسبة للزمن: الأولى هى: «كيف سأتحمل الانتظار حتى الساعة الرابعة»، والثانية: «هل سيكون لدىّ وقت كاف حتى الرابعة لأستعد لهذه المقابلة؟». وعلى أية حال فإن الناتج يشكل لى بعض القلق اليسير.

كان الـدور الأرضى بأسفل يبدو خاويًـا على عروشه مثل بقية المنـزل. فلـم يكن هناك أحـد بحجـرة المعيشة أو فـى أى حجرة أخرى. ذهبتُ إلى المطبخ، وكانت النافذة التى أشبه بالباب والمطلة على الحديقـة مفتوحة، وكانوا هم هناك: الفتـاة ـ المرأة، والفتى ـ الرجل، وطفل بالفعل طفل كان يـركل الكرة عاليًا. اقتربت الفتاة من النافذة وقالت لى: «يمكنـك أن تتناول طعام الإفطار هناك فى حجرة الطعام». فقلت لها إننى لا أرغب فى تناول الطعام. فقالت هـى: «هل أنا متأكد مـن ذلك؟»، فقلت لها: «نعـم». ففتحت أحد أدراج المطبخ وأخرجت منـه مفتاحًا معلقًا فى دوبارة وقالت:«ها هو مفتاح البوابة، فلن تكون فى حاجة هكذا لأن تقرع الجرس».

وضعت المفتاح فى جيبى. وكانت تبدو لى مترددة، فابتسمت وقلت لها إن كل شىء سيسير على خير ما يرام، وتركتها وغادرت المكان. لـم أكن أعرف مـاذا أفعل، ولكن نظـرًا لوجود المفتاح معى، كان علىّ أن أذهب.

بالخارج، وعبر الطريق الذى يؤدى إلى محطة السكة الحديدية ووسـط المدينة، كنـت أشاهد السيارات بصـورة خاصة. وكانت هنـاك سيارات مـن ماركة «هيلمـان» و»هومبـر» أو «فوسلى» و«ديملـر» أو «أستـون مارتيـن»، وكانـت هذه هـى السيارات الموجودة هناك فقط: مستديرة وصلبة، سرت على مهل، واتبعتُ

اتجاهًا ملتويًـا من رصيف إلى آخر ، وكنت أنتقـى السيارات التى تروقنـى أكثر. كانت سيـارات قديمة ونظيفـة ذات عجلات قوية ومتساويـة فى طلائها باللون الرمادى البـارز أو باللون الأخضر الزاهى. وهى سيـارات تعود إلى الخمسينيات أو الستينيات ، وهو عصـر النضـوج لصناعـة السيارات: وذلـك بعد الأناقـة الشديدة للرفـارف الخارجية والردياتيرات الرأسيـة ، وقبل ذلك الاهتمام الكبير بالشكل الخارجى وبالتشغيل اليسير المريح.

ومن الداخل ، فإن فرش السيارة محميٌّ دائماً بشريط لاصق ، حتـى وإن كان مقعد سيارة «جاجوار» مثل التى وقفت لأشاهدها. وهـى الأكثر جمالاً لأنها كانت سيارة متوسطة فى حجمها وسريعة ومريحـة، ومـع قيادتها يبقى غطـاء الموتور المتقـن فى صنعه، والرفارف كأساس ثابت للإحساس بالطريق الرمادى الممتد.

واصلت السيْر فوق الأرصفة المنخفضة وسط ألوان قليلة الكثافة بعضـ الشىء ، ولكنها جميلة ومريحة ، ثم بدأت الطلاءات تكتسب كثافتهـا الحقيقية ، فقط فى الأمام وبالتحديـد فى الشارع الرئيسى: الأبيض للنوافذ والأسود للتاكسيات ، والأصفر لليافطات ، والأحمر للحافلات. استقلّيْت واحدة مـن هذه الحافلات لأعود إلى المنزل؛

وفى الحقيقة كنت أنظـر إليه على أنه «منزل» وليس «فندقًا»، فقد كنت أظن أيضًا رغم كل شيء، أننى الضيف الوحيد به.

صعـدت إلـى غرفتـى دون أن أقابـل أحـدًا، واستلقيتُ على السرير الذى قد تم ترتيبه، تصفحت مجموعة من الأوراق الخاصة بالملاحظـات، وكأننى أراجع مـادة قبل الامتحـان. وبالطبع لم أستفـد شيئًـا؛ وذلك لأننى شـردت بذهنى، فقد كنـت أتخيل منزل السيدة «بلومنتال» والسيـدة ذاتها. حاولت أن أستخلص أى شيء ممكن، بدءًا من قولها «حسنًا جدًا»، والذى أنهت به مكالمتها معى: فقد كان قولها «حسنًا جدًا» بطيئًا تشوبه بعض السخرية والتسامح، أو هكذا بدا لى.

استلقيتُ لفترة طويلة، وكنت أنظر إلى السماء الزرقاء من خلال النافـذة، فى البداية تخيلت كل مربع من النافذة على أنه حرف، ثم حاولت وأعـدت المحاولة، إلى أن تكونت أربـع كلمات متقاطعة على شـكل صليب يمكننى أن أقرأها أفقيًـا ورأسيًا. استغرق الأمر بعض الوقت، لأنه كان من الصعب الاحتفاظ فى الذاكرة بالكلمات التى تتناسـب مع بعضها دون أن أحذفها مـع غيرها. وفى النهاية انتابنـى الفزع؛ فقد كانت كل كلمة تحمل معنىً محددًا للموقف هنا.

وقـد تلقيتُ ذلك على أنه إشــارة: إشارة إلى أنه ليس من الطيب أن أبقى أكثر من ذلك فى هذه الغرفة.

ورغم الإطالــة فى إنجاز الأشياء، فقد تناولت الطعم ببطء مثل أمير هندى، وبذلت كل جهدى حتى لا ألحق بمترو الأنفاق، فإننى عندمــا نزلــت بمحطة «ويمبلدون بــارك» كان يتبقــى أمامى نحو النصف ساعة كاملة على الموعد.

أعدتُ التذكرة للزنجى، وارتقيتُ درجات السلم وخرجت إلى الطريق تحــت شمس الظهيــرة المشرقة. وبعد خطــوات قليلة بدا واضحًــا اتجاه الأرقام: ربما كان منزلها هنــاك بأعلى حيث توجد فيلات فقط، بعد المنحنى الذى يرتفع معه الطريق الصاعد ويختفى بين الأشجار.

شاهــدت فاترينات المحــلات، وكان يبدو لى أنــه بقطعة نقود أجنبيــة يمكن شراء كل شىء. ليس لأن الأرقام أصبحت مجردة، وإنما لأننى وعلى غير المتوقع أرى أهمية الأشياء، بصورة مختلفة عما اعتدت أن أراها إذا كانت مناسبة أم لا.

توقفت أمــام بعض الصور لإحدى الشــركات العقارية، حيث كانــت تعرض فيلات صغيــرة مشابهة تمامًا لتلــك الموجودة على

الطريق. تخيلت مداخلها المظلمة، ومداخنها المغلقة بأمر القانون، وأبوابها ونوافذها صعبة الفتح ورائحة التراب والرطوبة المنتشرة بداخلها، نتيجة للخشب والموكيت المستخدم بدلاً من الرخام.

وحتى محطة السكة الحديد الصغيرة، فى الجزء الظاهر منها، ما هى إلا فيلا صغيرة بمداخنها وتاريخ تأسيسها وهو عام 1889. من يعرف، فربما مترو الأنفاق هو الذى يصنع المدينة، وصنعها فى الوقت المناسب.

تركت المحلات وشرعت أصعد بين حدائق وبائكات فى سكون جمٍّ. وصلت إلى منحنى الطريق وأصبح منزلها قريبًا. جلست على مقعد تم وضعه هنا بناء على رغبة «الدرمان س. بلاك»، وهو فاعل خير بمدينة «ويمبلدون»، كما تقول اللافتة النحاسية. أسندت مرفقى على ركبتىّ ووضعت وجهى بين يدى؛ وبقيت متوقفًا بصورة غريبة، دون أن أرى تقريبًا المنزل المواجه والواضح أمامى والمركب الشراعية التى تظهر من خلال الجانب المفتوح... لم أكن متأكدًا من أن الوصول مبكرًا عن الموعد هو شكل من أشكال العظمة، وكأن القدوم قبل الموعد دليل على الاهتمام باللقاء.

خطوت بعد ذلك الأمتار الأخيرة، وأنا أعتقد أنه بعد قليل سوف أكون عند باب المنزل، وأنه بعد برهة سوف أقرع الجرس. ووجدتنى بالفعل أقرع الجرس.

بقيت للحظة، غير طويلة، ثم دلفت إلى المنزل، وتحدثنا فى الأمور الأولى، وكنت أدوّن ملاحظاتى عند بعض التفاصيل فى سكون، حتى نُكوّن فكرة سريعة كل منا عن الآخر، وكل ما تخيلته فى تلك الفكرة وحتى ثانية ماضية تلائم ببساطة داخل الواقع، مع النزعة الانتهازية المعتادة للحس.

ربما كان هذا التلاؤم للخطى، أو الإحساس بوصولى حتى هنا، أو ربما ضوء الحجرة الرمادى اللؤلؤى فقط، هو الذى أثار بداخلى الإحساس ببعض الرفاهية. وقد تحدثت فى كل شيء دون أن أتبع خيطًا منطقيًا أو رواية مرتبة، ولكن تحدثت بطريقة كانت تطفو فيها الأشياء من تلقاء ذاتها، أو على الأقل كان يبدو لى ذلك. كانت هى ترد من حين لآخر «نعم»، وعندما انتهيت من حديثى قالت فى هدوء جم: «لقد كنت معه فى مدينة تريستة»، ولم يكن ليعرف ذلك أحد. كان ذلك قبل وفاته بقليل. «هناك لا أستطيع أن أسير لوجود خياطة أمى» أو«هنا لا، لوجود المدرسة»؛ كان هناك دائمًا شيء ما، وكان هو يخشى أن يذكره، ثم أراد بعد ذلك أن

يتنـاول طعام الغداء فى مطعم قريب من جدول مائى. كان الغداء عبـارة عن دجاجة مشويـة، ولكننى لم أكن أهتـم كثيرًا بالطعام، وسألتنـى صاحبـة المطعم: «بأى نوع من الحطـب تريد أن نطهو الدجاجـة؟». كان هو يعرف كل شـىء عن أنواع الحطب، أما أنا فلا أستطيع التمييز بينه؛ فقلت «ماهوجنى» ولم يكن رأيًا موفقًا».

كان شعرهـا أزرق اللـون تقريبًا ومثبتًا مـن الجانبين بمشطين صغيريـن، وكانـت ترتدى عقـدًا من اللؤلـؤ فوق رقبـة كنزتها الصوفيـة الواهيـة، ودبوسًـا ذا جناح، وكان يبدو لـى أنها تحمل وجهين مختلفين من الأمام ومـن الجانب؛ أحدهما منسجم الملامح والآخـر نحيل، وحـذر للغاية. وربما يرجع ذلـك لأن جزءًا من أنفهـا ومن فمها مثلث الشكل، أو ربما بسبب نظارتها المرتفعة إلى أعلـى، كما هى الحـال فى الخمسينيات، وعدسـات أشبه بفقاعات ملوّنـة. كانت ذات وجـه يستعصى على المـرء، أو على الأقل لم أفلـح فى تكوين فكرة سريعة عنه، لذلك ركزت على صوتها الذى كان فـى الواقـع منخفضًا وعميقًـا. جلسنا فى ركـن من الحجرة، كانت هى تجلس على الأريكة وأنا على مقعد بجوارها.

كان يمكننى أن أشاهـد الغرفة جيدًا وأن أرى من خلف «الباب النافـذة» المنظر الخارجى الهادئ المتمثل فـى الغابة والسماء فقط

قلت لها: «لكن لماذا كانت سرية تلك الرحلة؟». فأشارت بصورة مبهمة: «لا أدرى، فقد فر من تلك المدينة، حيث كانت هناك الكثير من الأقاويل». نظرت إلىّ وسألتنى فى صوت رقيق: «هل كانوا لا يزالون يتحدثون عن زيجات؟». قلت: «نعم، وظلوا لفترة متأثرين».

ابتسمت قائلة: «إنه لأمر غريب .... لقد ذهب الناس إليه، وكانوا يقولون: نحن بالفعل تعساء»، وكان هو يرد قائلاً: «إذا كان هناك شيء لا يقوى على الاستمرار فإنه من الأفضل إيقافه».

بقيت صامتًا. كان كل شيء يبدو بسيطًا وواضحًا فى معناه، ولم أسمعها تقول لى إن الأمور ربما كانت أكثر تعقيدًا. وعلى أية حال، فلم يكن الأمر مهمًا بالنسبة لى.

«فى السنوات الأخيرة من حياته كان يرغب بشدة فى الزواج منى، وكنت أقول له: لن تغفر لى ذلك أبدًا... ربما كان يشعر بقرب النهاية. وقد ظل متأثرًا عندما علم من خلال الإبر الصينية أن ضغطه مرتفع. وقد شعر بالوحدة منذ تلك اللحظة».

شرعت أبحث فى ذهنى عن كلمات مناسبة ثم قلت لها: «إن كل تجاربنا من أجل الحفاظ على توازننا دون مساعدات تنتهى عند حد المرض أو المنزل».

أشـارت بالموافقة قائلـة: «نعم، فنحـن النساء معتـادات على حـدوث تغيرات بأجسادنا، لذا فنحن نفزع بصورة أقل منكم. فهو على سبيـل المثال، عندما بدأ ينزف دمًا مـن أنفه أصابه الرعب. وبعد ذلـك كان عليه أن يترك منزله. أتعلم أننى أنا التى عثرت له على ذلك المنزل؟». فقلت لها إننى لم أكن أعرف ذلك.

«لقـد سكنتُ بها قبل أن آتِ إلى لندن بسبب القوانين العنصرية. ثم عملت هنا خادمة، وأعتقد أن أحدًا كان عنده خادمة مثلى. كنت أعمل فى عيادة محلل نفسـى معتوه تمامًا. ذات يوم منعنى من أن أفتح باب العيادة للمرضى لأنهم بدأوا يروننى فى أحلامهم، وكان ذلـك أمرًا خطيرًا لدرجة أننى فقدت وظيفتـى. وعلى آية حال فقد رأيـت، قبل أن أرحـل، أن الأختين، إحداهمـا عمياء والأخرى خيّاطـة، اللتين كانتا تستأجران ذلك المنزل ملائمتان له، وبالفعل مكـث هناك دائمًا. وعندما أضطر أنالترك المكان، كان ذلك أمرًا فظيعًـا. فكان علىّ أن أبحث له عن منـزل آخر؛ وقد وجدنا غرفة رائعة الجمال، ذات حديقـة مخصصة بالكامل له. وقد أحضر هو إلـى هناك حقائبه الممتلئة بـالأوراق والكتب، ولكنه لم ينم بها ليلة واحدة».

أردت أن أختصـر الأحداث التى ترويها، فقلت لها: «نعم، هذا أعرفـه». توقفت هى ثم نظـرت إلىّ، ثم واصلـت حديثها بعد أن

اختصرت القليـل منه: «بعد أن مات حضر شابـان ليساعدانى فى حمل الحقائب. كانت السماء تمطر وكان الليل قد حل وأنا أعانى من ضعف بالبصر، ونحن فـى وسط الطريق، ومع المطر المنهمر، أطلـت من داخل إحدى الحقائب ورقة صغيرة. فأخذتها ووضعتها داخـل جيبى؛ واطلعت عليها فقط عندما عـدت إلى الفندق، وكان مكتوبـا بداخلها وصيته... إنه أمر لن أنسـاه أبدًا...». أنصتُّ إليهـا؛ ولكن تارة كنت أتابـع القصة التى ترويهـا، وتارة أخرى كنت أحاول أن أفهم الإيقاع الداخلى الذى كانت تتحدث به. وكنت أحاول أن أجد حدًا معتدلاً ما بين الإنصات إليها وعدم المتابعة لها.

قالـت هى: «أنـا لا أفلح فى نسيـان شىء، فليسـت لدىّ ذاكرة انتقائية، لذا يجب علىّ أن أحتفظ بكل شىء فى ذاكرتى».

سكتت هـى لفترة وجيـزة جدًا، كانـت تتأملنى قليـلاً لترى ما إذا كنـت قد فهمت مـا قالته. ثم سألتنى قائلـة: «هل يروقك الخيال العلمى؟»، ابتسمت وقلت لها: نعم يروقنى.

بدت هى أكثر هدوءًا، وكأنها تفتح مجالا آخر محايدًا للحـديث. «أنـا أحب «براد بيـرى» بصورة خاصة». ولكنـى أتذكر حكاية جميلة للغايـة، لا أدرى لمن... فقد دُعى شـاب للعشاء من اثنين مـن الأصدقاء، وبعد أن انتهى من تنـاول العشاء قالا له: هل أنت

مستعد؟ فأجاب بنعم. هل معك ماكينة التصوير الفوتوغرافية؟ وهل معـك المسجل؟ نعم. وهل معك شيء لتكتب؟ نعم. إذن ابدأ. فقال هو: حسنـاً، ولكن القهوة؟ لـم أتناول القهوة. فقالا لـه: ستتناولها عندما تعـود. وما إن يبـرق الفلاش، وهو ضـوء خاطف، حتى يعود مرة أخـرى. وكان ذلك أشبه بـآلاف السنين فى المستقبل. وكانـا يقولان له: إذن مـاذا سيحدث؟ وكان يقـول: لا أعلم شيئًا. ألا تتذكـر شيئًا؟ لا. نظر إلى الورق: لـم يكتب شيئًا. ولا شيء تم تسجيلـه على شريط المسجل، فقالا له: حسنًا، حاول أن تتذكر أى شـيء. صمت قليلاً ثم قـال نعم، الآن أتذكر أنه قـد طرح أمامى الاختبار: إذا كنت أريد أن أذكر أم لا ...؟

أخـذت تتابـع تأثيـر القصة بطـرف عينيها وهى تبتسـم قليلاً. ابتسمت أنا أيضًا، ولكـن كنت أتساءل بينى وبين نفسى إذا ما كنت سأستطيـع أن أصمد أمـام روايتها. والمشكلة الأخـرى هى؛ أنها كانـت تقطع حالة السكون بإضافة شيء ضرورى، وكان يبدو لى أنه من الصعب التغاضى عن ذلك. وكنت أعتقد أن الأمر سيتوقف عن هذا الحـد. ليس لأن الروايـة أشبه بروايـات الخيال العلمى؛ فـكان يمكننى أن أروى واحدة مثلها أنـا أيضًا، وبينما كنت أستمع لهـا استسلمت وشرعـت أبحث عن رواية من بيـن الروايات التى أعرفها. لا، بـل إنها تتوقف على النية ذاتها لمن يروى، فالرواية

تقوم على نبرة الراوى وقـوة الأحداث والمواقف، وكل هذا يتيح حالةِ تلقٍ ناعمة كما يحدث معى، وأنا أجلس على هذا المقعد.

وبعــد ذلك، وعندما كنا نتناول الشاى والحلوى قالت لى أيضًا: إنــك لم تخبرنى بعــد بشيء عن ذاتك. وأيقنـت أننى لا أعرف أن أروى فى لحظة، أو أن أعطىَ فكرة بصورة مباشرة. وكان لدىّ الانطباع بأنى سوف أضطر للحفـاظ على هذا الفرق، وأن أكتفىَ بتوجيــه الأسئلة التــى أجّلتها حتى تلـك اللحظة، وهــى أسئلة هكذا إجمالية ورتيبة، ولكنها فى النهاية وبصورة شخصية، أسئلتى.

كنت أراقــب السكين وهو يغوص داخــل التورتة، وكانت هى تقطِّــع بصورة متساويــة تمامًا مــع مراعاة الأجـزاء البارزة من التورتة، ثم رفعت الشرائح فقط بعد أن فصلتها عن بعضها، بحيث تكون سليمــة حتى أطرافها. كانت تبدو لــى لحظة مواتية، وحتى وإن كنـت لم أتعلم أن أكــرر أحاديثى بسعة صدر، فقلت فى نفسى إننى لا يروقنى أن أقوم بدوْر المعلم الروحانى أو المستشار السرِّى لشخصية مهمة أو قارئ لكتب غريبة، لذا قلت لها: «المسألة ليست أن كل هذا لا يوجد، ولكنه تصور، ولذلك فأنا لا أعلم». والتقطت أنفاســى وشرعت أوضِّح لها أننــى لا أكترث حتى بمؤلف الأعمال المثالية والتى ينتهى بها الأمــر داخل روايات تعج بالتوضيحات، حيــث تمر هكــذا الأخلاقيات والسلوكيات جنبًــا إلى جنب من أجل

تنوير العقل . . . فقلت: «ما أحرص عليه هو نقطة ربما تتشابك فيها معرفة الذات ومعرفة الكتابة. فأى شخص يكتب فإنه يتخيل ذاته بصورة أو بأخرى. فى حالته على العكس، وتحديًا فى هذه النقطة كانت هناك حالة صد ورفض وصمت. إننى أود أن أفهم لماذا ؟»

توقفت قليلاً وقد اعترانى بعض التوتر، ولكن رغبتى فى مواصلة حديثى لم تكن قد فترتْ بعد.

كانت هى تمسِك شريحة التورتة بصورة متزنة فوق السكين، ثم تنقلها إلى طبقها. بعد ذلك كانت تضع الغطاء مرة أخرى ببطء فوق الحلوى. ثم تلملم بقايا التورتة بأصابعها. وفى النهاية كانت تستند بيدها فوق المنضدة الصغيرة.

وعندما بدا لها أن كل شىء أصبح مرتبًا، نظرت إلىّ قائلة: «لنرى أولاً مسألة معرفة العيش. . . لقد ورث ثروة وبدّدها على الفور. فقد كان، ذات مساء، على مائدة العشاء مع بعض السيدات، وكان يقول إنه أجمل يوم فى حياتى، لأننى أنفق آخر قرش فى ميراثى».

كان ليعيش فى حياته هكذا، لا أدرى كيف، ولم يكن بمقدور أحد أن يعرف ذلك أبدًا. ربما لم يكن يدرك ما الطريقة الصحيحة للبقاء فى هذا العالم، أعنى أنه لم يكن يبلغ ذلك من خلال التفكير،

فقـد كان يعيش كل لحظة فــى حياته إما فى سعــادة ، أو إحباط أو ثــورات غضب فظيعة. وقــد كان لديه أصدقــاؤه الشباب ، وكان شديد القلق عليهم . فقد كانت حياته تقوم على الأشخاص الآخرين ، علــى مــا يستطيــع أن يفهمه عنهم ، وعلــى ما يستطيــع أن يجعلهم يفهمونــه. وعلى أيــة حال ،أعتقد أنــه نجح فــى أن يعيش بطريقة صحيحة، ولكن لم يمت كذلك . . . ففى الشهور الأخيرة من عمره أصبــح. . . شخصًا آخر . . . شخصًا ضل طريقه. وأصبح لا يحب أحدًا قط ، ولا يهمه أى شىء فى الحياة. . .»

كانــت تتحدث دون أن تنظر إلىّ ، ولكــن جانب وجهها الدقيق والمتيقظ أو طرفـ عينها ، والذى كانت ترانى من خلاله ، لم يفقدا أى رد فعــل دقيق أظهره. وقد حاولت أن أظــل ساكنًا تمامًا حتى بداخلــى. وانتظرت أن تمر الحكاية مثل أولئــك الذين يُدْفَنون فى الغابات المشتعلة تاركين النيران تعبر من فوقهم.

واصلتْ حديثها فى بطء قائلة: «كانت لديه وساوس: مرة بشأن الطعام اليابانى ، وقد كنت أقول له: توجد رائحة كريهة جدًا تنبعث مــن الثوم واللوز». وكان يــرد قائلاً: «إنه طعــام الساموراى»؛ ومــرة أخرى كانت الإبر الصينيــة ، فقد كان يرفض أى نوع آخر من الأدويــة. وقبل وفاته بيومين تحدث معى عبــر الهاتف قائلاً:

«لم أعد أذهب عند الطبيب فقد شفيت». فقلت له: «أوه، حسنًا. سوف أتصل بك بعد ذلك». ثم اتصلت به مرة أخرى وقلت له: «إن ما روَته لى كذب». فرد قائلاً: «أنا لا أهدر كل هذه المكالمات لأقول لك أكاذيب».

وكلما استمرت فى روايتها، كلما انحنت بصدرها نحو الداخل مع استرخاء ذراعيها. ثم التفتت قليلاً تجاهى وقالت: «هل تعرف ماذا يعنى أن تحس أين يكون شخص فى لحظة محددة؟»

فقلت: «لا أعرف، ربما». وفى الواقع لم أكن أعرف إذا كنت أعرف ذلك؛ أو الأفضل أن أقول لم أكن أعرف ماذا كانت تقصد بالتحديد. ابتسمت هى، فقد أدركتْ جيدًا مدى حيرتى؛ ثم أصدرت إشارة وكأنها تريد أن تقول ماذا ستعرض علىّ فى ذلك الوقت. «حسنًا، هنا بأسفل توجد بحيرة، وفى عصر ذلك اليوم ذهبتُ إلى هناك. وقد سلكتُ، لدى عودتى، طريقًا مختصرًا يمر بين الأشجار. كان يومًا رائعًا للغاية، وكنت خالية البال. وفجأة شعرتُ بشىء غريب فوق كتفىّ، لم يكن ألمًا ولكن كان إلحاحًا فظيعًا؛ وكان هناك هاجس يتردد فى أذنى قائلاً: «لا أحد يعرف بدقة فى أى وقت مات»، أنا أعرف ذلك جيدًا. فعندما كنا نستقل السيارة، كنت أجلس بالأمام وهو بالخلف. كان يضع يديه

علـى كتفى، وبين الحين والآخر كنـت أقول له: «إن قبضتك قوية للغاية». وفى عصر ذلك اليوم شعرت بنفس الشىء».

خيّـم الصمـت علينا. كانت هـى تلف منديلاً مـن الورق حول إصبعها، وكانت تضغطـه بشدة عند كل استدارة حتى لا يترك أى أثر. وعندما نزعت المنديل كان إصبعها يكتسى باللون البنفسجى. شرعـتْ تتأمله. ثـم أخفت المنديل داخل كم كنزتهـا. كانت أشعر بفـراغ داخلى وبالضياع بين صورة غير مرتبة، حبّات من اللوز أو حقائـب ملقاة هنا وهنـاك تثير الارتباك مثل سـر غير مصانٍ. كنت فى حاجـة إلى شىء معاصر، حتى وإن كانت أشياء الغرفة، فنظرت إلى آلـة البيانو العمودية، والأباجـورات والكتب وشىء أشبه بجهاز تسجيل ضخم، بل أضخم من كونه مسجلا.

قلـت لها فى نهاية الأمر: «معـذرة، لماذا تروين لى كل هذا؟» لم ترد على الفور، والتقطت أنفاسها لتتحدث، ثم هزت رأسها، ثم تنهدت، وانتظرتُ أنا فى صمت.

ثم قالت: «لأننى أعتقد أنه عـن طريق الحكايات فقط ستستطيع الفهـم». ابتسمـت لها وقلـت: «لا، ولماذا؟ فهنـاك طرق أخرى عديـدة». هزت رأسهـا مرة أخـرى ولكن برفـق؛ وتوقفت عن

مواصلـة الحديث. ثم قالت ، بعـد ذلك ، وبصوت خافت ومحدد: «إننـى أروى لك هذه الحكايات لأننى لا أستطيع أن أكتبها لك... لقد حاولت آلاف المرات، ولكن كنت أمزق الورق فورًا... فأنا ألمّـع أيضًا حذائـى قبلِ أن أشرع فى الكتابـة، أو أعد الطعام وهو شيء أبغضـه. ولكن كان يبدو لى دائمًا أنـه يقف خلفى، ولو علم أحـد رأيه فيمـا كان يكتب، فإنه تنتابه حالة مـن الخوف من أن ما يكتبه لن يستحق أى شيء».

اشرأبيـتُ قليلاً وشرعت أستغل الفرصـة، ثم سألتها دن تفكير: «من أجل هذا لم يكتب؟»

رفعت كتفيها قائلة: «لا أدرى... ما رأيك أنت؟»

قلت: «لا أعرف، ليس لـدىّ أى رأى... لكن الرأى الأعلى فيما يتعلـق بالكتابة يكون مِلْكَ من قرر عدم الكتابة. إنه رأى قاسٍ جدًا».

«ربما... ولكنه أمر حقيقـى، كما كان يرى، وهو؛ أن هناك الكثيـر من الكتـب، وأنه مـن غير المجـدى إضافة كتـب أخرى إليهـا. فلو لم تكن هناك كتب كثيرة، فإن الناس ربما قد تفكر بنفس تفكيره».

بحثتُ عـن أقل عدد مـن الكلمات لأرد عليهـا ، وأوضحت لها لمـاذا لا أتفق مع هذا الرأى . تحدثـت معها عن إشاراته وتحركاته وبالأخص طريقة سيره . فرجعت نحو الخلف وابتسمت قائلة: «أنا أقـول هكذا ، لكن بعد ذلك أجدنى أبحث عـن الكتب . . . وأقرأ أى شيء . أقـرأ بلا نظـارات ، ولاسيما عندما لا يرانـى أحد ، لأننى أضطـر أن أبقى ووجهـى ملتصقًا بالكتـاب . بل أخشـى أيضًا أن أجرح أنفى . . . أو أضع كتابًا منطوقًا داخل المسجل ، ولكن الشيء رفيـع الثقافـة الـذى ينتجونه وهو ، ثلاثة رجـال فى مركب ، فهو دائمًا شيق . . . » .

خيّـم الصمت مرة أخـرى علينا ، فكنت أنظر إلـى الموكيت أو إلـى حذائـى وكأن من ذلك الاتجـاه قد يأتى توضيـح . قالت هى: «انتظـر» . . . ونهضـت ببطء وذهبـت عند المدخـل . كان يوجد بنطال فاتح اللون ، تحـت الجاكت الصوف ، وكان مثبتًا من أسفل بشريـط من المطـاط مثل متزحلقـى الجليد . ثم عـادت بعد قليل . ووضعت علـى المائدة الصغيرة ، بجـوار الحلوى ، مجموعة من الصـور ، وقالت: «لقـد كنت قد أعددتها من أجلـك . . . » . لم أرد بكلمة واحدة ، فقد تملكنى شعور بالاستسلام التام .

أخذت هى الصورة الأولى ونظرت إليها عن كثب ، وهى تضع النظارات على وجهها ثم قالت: « . . . آه نعم ، إنه قصر مارى دى

ركولتس . . . كنا نذهب إليه دائمًا ، ولكن لم نر أبدًا بوند . فقد كان نزيلاً بمصحة الأمراض العقلية هناك بمدينة ميرانو ، وكان يستقبل فقط واحدة من أحفاده التى كانت تذهب إليه لتقرأ عليه (بنوكيوه) . . . » واقتربت بالصورة رويدًا رويدًا نحوى .

لا أدرى ، لم أكن أود أن أتظاهر ، ثم إننى لم أكن فى حاجة لأن أتعرض للعذاب الذى شعرت به فى المرة السابقة «بتريستة» . قلبت الصورة على وجهها ووضعتها على المائدة الصغيرة برفق ، وقلت لها: «سيدتى أنا لا أستطيع أن أرى الصور . وأنا آسف لذلك» . قلت ذلك بأكبر قدر من الهدوء ، ومع ذلك كانت هناك لحظة من الارتباك فخفضت رأسها بعناية وقالت: «نعم أستطيع أن أفهم ذلك» . . . وانتابنى انطباع لبرهة بأن ذلك ممكن .

أعدت لها الصورة ، فوضعتها فى الاتجاه الصحيح وسط مجموعة الصور ، ثم دفعت بها إلى أبعد مكان فوق مائدة أخرى صغيرة ، حيث تبعثرت الصور وكأنها أوراق لا ضرر منها . ثم أصدرت إشارة تحمل معنى الصبر قائلة: « . . . على أية حال ، فى ذلك القصر كانت هناك دجاجة تبيض وتصيح فى عصر كل يوم . وكان هو يسخر منها ويقول: ها هى ذا تعلن للجميع عن بيضة أخرى أصلية فى قصر بوند . . . »

لم أتمالـك نفسى فرحتُ أبتسـم لما سمعته منهـا ، وبادلتنى هى الابتسامة فـى استرخاء كبير . وقالت: «عندمـا وافته المنية، قلت لأعـز أصدقائـه:أود أن أنسى أشياء كثيرة». فـرد الصديق قائلاً: «لا ينبغـى عليـك ذلـك ، لأن حياته هكـذا كما كانت ، هـى أعظم أعماله. . .»

ولم أستطـع أن أمنع نفسى من أن أرجع هذه الفكرة على الفور إلى «كاتريـن هيبورن». ولكننى قلت فقـط: «لا ، إن الأمر ليس كذلـك. . .» ، وربما قلت هذه العبـارة ببطء شديـد أو بينى وبين نفســى ، حيث إنهـا واصلت حديثها وهى غارقة فـى التفكير: «منذ زمن بعيد كنا قد تحدثنا عن الكيفية التى يود أن يموت عليها المرء ، فقال هـو إنه يروقه الموت فـى الهواء الطلق وتمنــى ولو لم يعثر علـى جثمانه أحد. . . حتى فى المـوت كان يرغب فى أن لا يشعر به أحد. . .»

تحجّـرت فـى مكانى ، ولـم أكن أعـرف فيما أفكـر ، ربما فى السعـادة لأننى وصلت فى الوقـت المناسـب ، ولأننى نحجت فى مهمتى رغم المخاطـرة بين انطباعاتى وأيضًـا انطباعاتها ، تاركًا الأمـر يصبح ملكًا عامًا متغيرًا ، حيًا . . . عـدت إلى الوراء وقلت لهـا: «نعم ، كل شيء عنده كان يتجه نحو التجاهل ربما كان هناك خوف أيضًا. . .»

فقالت هى فى هدوء: «أنا متأكدة من ذلك».

فسألتهـا لماذا. فكَّرت ثم قالت: «لقد كان يعلم بمدى تأثيره على الآخرين ومدى اعتمادهم عليه. فلو كان قد كتب شيئًا غير ذى قيمة كبيـرة، لكان لذلـك تأثير سيئ عليهـم... إن خوفه كان... كما يقال أن يخيب آمالهم؟».

يقال: «يخذلهم» هل تعتقد أنه كان كذلك؟»

«نعـم، مـا نقرأه عنـه وما نعرفه عنـه، لا يتطابـق ...، لقد كان يفهم الأشخاصـ بصورة مختلفة عما اعتدنـا أن نقصده بكلمة «يفهم». لم يكن يحاول أن يتخيل كيف تكون الشخصية الأخرى، فقد كان هو تلك الشخصية».

وعندمـا اكتشـف أن ذلك هو مكانـه فى الحياة، لـم يستطع أن يكتـب أبـدًا. لقـد أدرك أيـن كانت تكمـن قوته، كانـت تكمن فى الأشخاص...».

خيّـم السكون علـى المكان حتـى بالخارج خلـف النافذة، وقد اعترتنى رجفة فسألتنـى: «هل تشعر بالبرد؟»، فقلت لها لا. رغم ذلك نهضـت لتغلق النافذة. قالت: «لقد وضعت هـذه الليلة الغطاء

الكهربائــى. وعندمــا ألمســه لا أجــده دافئًا، ومع هــذا فهو يجعل المكان دافئًا جدًا».

قالت: انظر إلى طبــق التورتة: «إنك لم تتناول منه شيئًا . . .» ابتسمت لها دون أن أرد. كنت أفكر فى «خوف» أو «يخذل» هكذا فى خطوط عديدة متفرقة ومختلفة مثل خطوط الانشطار النووى.

جلست مرة أخــرى وابتسمت قائلة: «. . . توجد رواية لـ«براد بيرى» الجميلة جدًا تُسمى «صيف بيكاسو». هل قرأتها؟»

قلت لها: «لا ، لم أقرأها» قلت ذلك وأنا أضحك تقريبًا. ضحكت هــى أيضًا . . . «رجل وامرأة، زوج وزوجة، أمريكيان بالطبع ذهبــا لقضاء الإجــازة فى مكان على البحر، بيــن فرنسا وإسبانيا. وقــد أصر الــزوج على الذهــاب إلى هناك، لأنــه كان يعرف أن هنــاك كان يعيشــ «بيكاسو» وأنــه أحيانًا كان ينــزل نحو الشاطئ . لــم يكن يحــدوه الأمل فى رؤيتــه، ولكنه كان يريــد على الأقل أن يستنشــق الهواء الذى كان يستنشقــه «بيكاسو» قالت له زوجته بعــد تناول طعام الغــداء: سأذهب لأستريح قليــلاً، هل تأتى معى؟ فقــال لها لا، سأقوم بالتنــزه، وأتجه نحو البحــر، كان يسير عبر الشاطئ، وأحس بوجود رجــل آخر يسير أمامه. رآه من الخلف: كان رجــلاً عجــوزًا برونــزى اللون وشبــه عار ورأســه صلعاء

تمامًـا، وكان يمسك فى يده عصـا وبين الحين والآخر كان ينحنى فـوق الرمال ويرسم شيئًا. سار هو خلفـه وأخذ يتابع الرسومات؛ كانـت رسومات لأسماك ونباتات البحر. ثم ابتعد «بيكاسو» وظل يتضاءل إلى أن توارى. جلس الرجل بجوار الرسومات وانتظر. وظل ينتظر إلى أن محت أمواج الشاطئ كل شىء وعادت الرمال ملساء من جديد».

كانت ملامح وجهها، بعد كل حكاية، تتناغم مع أى حدث قد يقع بعد ذلك. وقد غمرنى تقريبًا إحساس بالسعادة والحبور. فضحكت وقلت لها إنها حكاية جميلة.

ثـم فعلت كل ما يجب فعله، مثل النظر إلى الساعة وإلى الضوء بالخارج لأشير إلى أننى سوف أغادر المكان.

وعنـد الباب قلـت لها: «قـد أعود غـدًا»، فردت قائلـة: «أوه بالتأكيد». نظرت إلى العصا البيضاء المسندة إلى قطعة صغيرة من الأثـاث. فابتسمت هى وقالت: «أن يكون المرء أعمى أمر مختلف عـن أن يكون أصمًـا. فالصمُّ مرتابـون ويعتقـدون أن الآخرين يتقوَّلـونِ عليهم. أمـا العُمْىُ فهم، علـى العكس، ممتلئـون بالثقة ويسرفون فى المزاح».

نزلـت مـن أعلى التـل ، وكان الجـو عليلاً والألـوان زاهية ، ولكننـى لم أكن أعبأ بهذا ، فقد كنت أفكر فـى إمكانية أخذ قسط من الراحـة حتى المسـاء أوحتى اليوم التالى أو لمتـى لا أدرى . كان يبـدو لى فى ذلك الوقت أن لدىّ سببًـا لبقائى هناك ، ومن ثم يجب علىّ أن أستغل فترات الراحة ، وأن لدىّ دافعًا أكيدًا لتنقلاتى .

يمكننى أن أستقل مترو الأنفاق بهدف «العودة» مثل الآخرين ، أو أن أنتظر فى مـكان بلا حراك خالىَ البال بالمحطة الهادئة ، أو أن أقـرأ جريدة تحمل عناوين باللـون الأحمر وأنا داخل القطار ، أو أقـرأ بعض الدعايات الصغيرة عن كيفيـة تنسيق المرء لحديقته بنفسه .

وعندمـا وصلت إلى «ويمبلـدون» وتخطيت الميـدان الممتلئ بالناسـ ، لا سيما حـول المحلات العامـة ، فضلـتُ أن أسير على قدمـىّ حتى المنـزل . وسرت وسط فيـلات صغيرة عـن اليسار وعـن اليمين ، وكان بداخل هذه الفيـلات كل شىء أجده ضروريًا وطبيعيًا ، بالنسبة لى كان ربما يمارس بطريقة ضرورية وطبيعية . وواصلت سيرى هكذا مسرعًا .

كنت أسمع خلفى، فى البداية، رنين جرس كهربائى مستمرًا، ثم صوتًا شديدًا لموتور ضخم، وفى النهاية تقدمت أمامى سيارة المطافئ واتجهت إلى شارع جانبى هناك بأسفل. ولمحت سحابة من الدخان الكثيف الذى بلغ قمة الأشجار، لذا شرعت أجرى.

وما إن وصلت إلى ناصية الطريق، حتى عدت أسير بخطوات سريعة بعض الشىء. وعند تقاطع الطريق كانت تحدث أشياء مختلفة ومتزامنة، ولكن فى سكون، كان كل شىء يحدث من خلال تبادل الإشارات بين رجال يرتدون سراويل صفراء اللون وسترات سوداء. وقد قفز اثنان منهم من فوق حوض نباتات، وجريا وهما يحملان خرطومًا نحو اليسار. وأخذ واحد منهم يتصفح كتاب خرائط المدينة إلى أن عثر على الطريق، ثم أشار إلى موضع الحنفية العمومية. ثم انحنى إلى الأرض وفتح البالوعة ونظر بداخلها ثم قام بتركيب الخرطوم. وقام آخر، وكان يقف بجوار سيارة المطافئ، بالضغط على محبس السرعة. وأخيرًا وبعد هذه التحركات الصامتة انطلق الماء إلى أعلى تجاه النافذة المفتوحة المظلمة بالدور الثانى.

كان صوت المكبر ينتشر فى كل الأرجاء، وكان يأمر بإخلاء العمارة الصغيرة، وكانت بناء من الإسمنت منخفض الارتفاع

وعريضًا. وبعد برهة كان هناك بالطريق فريقان: أحدهما للسكان، وكان يقف فى الساحة الخالية أمام المنزل، وفريق للجيران، يقف على الرصيف المواجه، وتفصل بينهما مضخة الإطفاء، وهى لب الحديث. ودون أن يرانى أحد تركت فريق الجيران واتجهت لأقف بين فريق السكان.

كان السكون يخيم على المكان تمامًا، وكنا نسمع صوت تأجج النيران ونشم رائحة البلاستيك المحترق، ونشاهد النافذة السوداء وألسنة اللهب المنبعثة منها، وشلالات الماء المنهمرة إلى أسفل. وكنا نسمع من إذاعة سيارات الإطفاء بلاغات عن عناوين جديدة وحالات طوارئ أخرى، ولولا أننا كنا نقف هنا فى هذا المكان لأمكننا أن نقدم يد العون لأصحاب هذه البلاغات. وفى النهاية كنا نقف جميعًا تحت الماء المنهمر.

برز من بين فريق الجيران فتى يحمل فى يده آلة تصوير فوتوغرافية؛ وكان يلتقط بها صورًا على فترات متباعدة بعد أن يحدد الإطار المراد تصويره. وكان أيضًا لفريق الجيران مركز يقفون بجواره: فقد كانت هناك امرأة عجوز كسا الدخان وجهها بالسواد، فقدموا لها مقعدًا. ووقفوا، ليس حولها، ولكن بجوارها وخلفها، وكأنهم قد دعوا لشيء من المرأة ذاتها. وقد أخبرنى

رجـل يقف وذراعيـه متشابكتين فى صوت خافت قائـلاً: «الخطأ ليس خطأها». لم أرد عليه بكلمة واحدة، وكان هو يلح قائلاً: «هذه المرة حقًا ليس لها أى شأن بذلك» . فقلت له : «حسنًا ، لا بأس».

ثم طل من النافذة أحد جنود المطافئ وأعطى إشارة نهائية فعاد كل شيء إلى الحـد الأدنى: موتور سيـارة المطافئ وضغط الماء والأفراد. وتم طىّ كل المعـدات وسار فريق السكان. وبقيت أن بلا حاجز فى مواجهة المرأة العجوز الجالسة على المقعد.

وكانت هى تنظـر إلى نقطة فاصلة بينى وبين النافذة، ثم قالت: «الآن يجب علىّ أن أرتب كل شىء مرة أخرى، هل تفهم؟»

عندمـا عدتُ إلى الفندق فى وقت متأخـر، كانت كل المصابيح بالمطعم مضـاءة بما فى ذلك الأباجورات الموضوعة على الموائد الصغيرة الخالية، وذلك لوجود اثنين من النزلاء. تناولت الطعام دون أن أكتـرث بشىء؛ فكنت غارقًا فى أفـكارى، وفى المشاهد التى عشتها منذ بضع ساعات مضت.

تبقى لدىّ منذ عصـر ذاك اليوم شعور بالانتماء لما حدث أو ما قد يحدث؛ ومن المستحيل إعطاء هذا الشعور إطارًا محددًا، وربما مـن أجل هذا كنت أشعر بالانفصال عن بقية الأشياء، هنا، وكأننى صورة فوق منظر طبيعى.

وبعـد ذلك أصبحـت قلقًا كالعادة ، عندمـا أجلس مع الآخرين ، وليس لدىّ جهاز التحكم فى القنـوات؛ فأنا لا أستطيع أن أغيّرها ، وأن أرى مشاهـد المطاردة تاركاً الأحـداثِ الداخلية والأسباب ، وأن أرى الكثيـر مـن الأفـلام معًا ، فيمـا يشبه حكايـة مُجْمَلة مع اكتراثنا فقط بتعاقب الحركة والسكون .

ذهبتُ إلى غرفتى بالدور الأعلـى . وبدلاً من أن ألقى بجسدى علـى السرير ، كما كنت أود ، قمت بعمل كل الاستعدادات الليلية . وهـذه الاستعدادات ما هـى إلا علم يتعلمه المرء مـن النساء؛ حتى وإن كـن مُجْهَدات ، فإنهن يقمن بإزالـة الماكياج ويعتنين بأنفسهن ويتناولـن كوبًـا مـن الماء ويختـرن لأنفسهـن كتابًـا لقراءته قبل النوم . وأحيانًا ، بعد ذلك ، يتحدثن فى الظلام ويصبح من الصعب الاستغراق فى النوم .

من يـدرى متى أكون عفريتًـا ، ويكون علـىّ أن أبث الرعب فـى قلوب الزائرين . فأنـا فى حاجة إلى صرخـة مرعبة مدمرة . شرعت أركز وألتقـط أنفاسى؛ وأنا مستيقظ وصرخت . فى البداية كنت أشعر بالسعـادة ، لأننى أفلحت فى ذلـك ، ثم تراجعت بسبب صوتى المبحوح المخيف .

الفصل السادس

استيقظـتُ من النــوم وذراعاى متشابكتين فـوق صدرى ، فى وضع اتخذه جسدى من تلقاء ذاته ، وعاجلاً أو آجلاً سيقوم شخص آخر بإعطائــه هذا الوضع . وقد جعلتنى هــذه الفكرة أنجز أمورى فى عجالة؛ فبعــد عشرين دقيقة رأيتنى بالحديقــة مستلقيًا وفى يدىّ كتاب ، علــى مقعد من القماش لم أفلح فى ضبطه عند الحد الأوسط بين الاستلقاء والجلوس فى اعتدال .

كان يعد الطعام داخل المطبخ عامل الفندق ، وكان يرقص على أنغام الموسيقى المنبعثة من الراديو ، وعندما أدرك أننى أشاهده ، قــام بعمل خطــوة بهلوانية . أعــد الفتى الشــاى لكلينــا ، وبينما كنا نحتسيه خضنا ، بصورة غير متوقعة ، حديث حول بلاد العالم . قال هو: «لم يعد لأى بلد معنى . غير أن كل شىء هنا معد لكى يستطيع أن يعيشــ المرء وســط عدة ملايين من البشر فــى نفس المدينة» . لم أجــب بشىء: كنت أشاهــد المقلايات الكثيــرة الموضوعة فوق المواقــد . سألته إذا كان ينتظر حضور نــزلاء جدد . فأجاب قائلاً: «لا . لقد أعددت أيضًا وجبة الغداء ، وبذلك أصبح حرًا» .

كانت السماء مبهجة ، بلا أهمية . كان المهم هو أن أقرأ فى الهواء الطلــق ، وكنت أرفع بصرى بين الحيــن والآخر لأشاهد الأشجار

مـن الجانب، وموائد المنزل البيضاء والطريق. كان لون الضوء فوق الصفحات أو مشاهد البيئة من حولى تنساب داخل الذاكرة مع الرواية، وكان ذلك يفيد فى إحداث حالة من الثبات أثناء القراءة. أو على الأقل أود أن يكون الأمر كذلك الآن، وأنا أقرأ هذه القصة التـى كُتبت بعد الحرب مباشرة، وفيها يوجـد هو كشخصية، هكذا واقعيـة، رغم أنـه كان يُدعى «أنس»، والـذى كان يتحدث أيضًا عن «علامة قابيل فى وسط جبينه» كما كان يفعل القبطان ذاته.

تابعـت قصة الشـاب «سباستيانـو» و«أنس» فـى روما، إبان الاحتـلال الألمانى؛ وهنـاك العديد مـن العقـد العاطفية وحالات حـب تقترب وتبتعد عـن الخطوط الدرامية للروايـة. وتصور لنا القصـة «أنسـ» و«هو شاب فـى الأربعين من عمـره» وهو أكثر حكمـة وانعزالاً عن الآخريـن، ولكنه مدرك تمامًـا لشئونهم؛ أما «سبستيانو» فهو يروى يومًا بعد يوم ما يحدث فى الواقع. وبالقصة مناقشـات جوهرية، ولكنها لا تروقنـى، بيد أنه أمر مؤلم الاعتقاد بأنها كانت حقيقية أو من المحتمل أنها كانت مهمة.

وربما يجـب على المرء الاهتمام بالقصـص التى لا تتعلق به. وقـد بدا لى واضحًا أن الألمـان بعيدون عن الأفلام، وذلك عندما توقفـت أمـام جبّانة حربية. وكانـت تلك الجبّانة سهـلاً مهجورًا. ودلفت بداخلها، فلم أجد بها أحدًا حتى الحارس. سرت بين المقابر

ورحت أقـرأ الأسماء؛ وكان يبدو لى أمرًا غيـر عادى أنه بالنسبة لعائــلات «هابتيمان» و«أوبركور بورال» المدفونة تحت أمتاعهم أن تبقى بالفعل هكــذا، وأنهم قد نظروا إليها هكذا حتى آخر لحظة: والخــوف يمــلأ قلوبهم وتحدوهم فكــرة حقيقية أنهــم هناك؛ موتى بالفعــل. كان «سباستيانو» يكتب أيضًا ما يحــدث بالفعل، ثم انتقل إلى الأشخاص، مع نهاية الكتاب وقرأ على «أنس» ذلك. وعندما كان يقرأ عليه الأجزاء التى يظهر فيها «أنس»، كان الأخير ينفجر فى الضحك. كان يضحك ملء شدقيه، ولكنه كان متوترًا، وعندما بلغ ضحكة أشده سأله «سباستيانــو»: «ما الأمر؟»، فقال «أنس»: «لا عليك فأنــا أستمتع بما تقول». وعندمــا انتهى من القراءة... ظل «أنس» صامتًا، ثم ضحك مرة أخرى بصوت مرتفع. ثم قال لى: كيف كتبت هذه الأشيــاء، وقال إن الوصف كان فظيعًا، وإن كل هذا لم يكن حقيقيًا. «وأصر» «أنس» على أن كل ما قلته غث، وأورد أسبابــه: كان هناك سببان على الأقل: أحدهما هو أننى كنت أعرف أن «ماورا» تحبك».

شاهدت الفتى الذى خرج من المطبخ وجلس على مقعد ممدود، وأخذ يهــذب شعره المسترســل على جبينه، ثم يحــاول أن يرفعه إلــى أعلى وذلك بالنفخ فيه. وبعد قليــل حضرت أيضًا الفتاة ومعها الطفــل، والــذى لا أدرى ماذا يصنع طوال النهــار. كان ثلاثتهم يلعبون فى هــدوء. كانوا يضعون شريط كاسيت فارغًا بالمسجل،

ويحاولان أن يجعلا الطفل يتكلم، وعندما كانا يجعلانه يستمع مرة أخرى لعوائه كان يشعر بالغيرة.

كنت أقرأ في ذلك الوقت الحوارات فقط. كانت المناقشة بشأن «ماورا» تتصاعد. قال «أنس»: «ولكن ياولدى العزيز، أنا رجل فى الأربعين من عمرى، وتعرضت لمآزق كثيرة فى حياتى أكثر مما تتخيل. ومع هذا فأنا أمتلك من الحصافة ما يجعلنى أنأى بنفسى من الوقوع فى خطأ مثل هذا». وكانا تارة يتشاجران وتارة يضحكان؛ وقال «أنس» فى شجن: «إنه أمر مُهين تقريبًا. فأنا على أية حال عجوز غيور وسيئ الظن. ولم أكن أبدًا هكذا، أقسم لك على ذلك». ورجا «سباستيانو» أن يقرأ عليه مرة أخرى، فقرأ «سباستيانو»، فاعترض هو مرة ثانية قائلاً: «ينبغى علىّ أن أكتب مذكرة ضد هذا». فاقترح عليه «سباستيانو» أن يضيف فصلاً بعنوان «تصويب الأخطاء». وقال «أنس»: «يجب أن تصحح يا «سباستيانو». فأنا لست هكذا». فدافع «سباستيانو» عن نفسه قائلاً: «لا أحد هكذا، ربما»...

... فقال «أنس»: أوه، لا أعتقد أن الأمر يتطلب مجهودًا شاقًا ليدرك الآخرون أنه أنا».

فغمز له قائلاً: «يا عزيزى «أنس» إن جريمتى لا تصل إلى هذا الحد. فمن الجلِىّ أننى سأغيّر الأسماء».

توقفت عن القراءة، وأخذت أشاهد الأشياء من حولى، الثلاثة أشخاص قاطنى الفندق، والفندق من خلفهم، والسيارات التى تسير على الطريق والأشجار والحديقة بما فيها والطائرة البيضاء التى كانت تتوارى فى الأفق. وبينما أطوى الكتاب، نظرتُ إلى عبارة أخيرة يقول فيها «أنس» وهو يضحك: «مسكين يا «سباستيانو»، فيرد عليه «سباستيانو» قبل أن يخلد إلى النوم وهو ينظر إلى الحائط، وقد خيّم الظلام على المكان: «كلنا مساكين».

وفى حجرتى، بعد ذلك، ولكى أستعد للموعد، كنت أكتب بين الفينة والأخرى كلمة ثم أضع حولها هالة. وفى النهاية ومع امتلاء الورقة بهذه الدوائر، يصبح الأمر مستعصيًا على الفهم، كما هى الحال دائمًا عندما يصبح لدىّ عدد من الكلمات، ولا أستطيع أن أفلح فى الوصول إلى شىء من خلال بناء عبارة ذات معنى.

وكانت الأحداث تبدو أحيانًا خالية من التسلسل: استلقيتُ على السرير ثم نهضت، وذهبت عند النافذة ولكن لم أنظر إلى الخارج، وشرعت أرتّب المائدة الصغيرة وانشغلت، بعد ذلك، ببعض الأشياء داخل حجرتى، فقد خلى أثاث الغرفة أيضًا من بريقه الهادئ.

كنت أتحرك باستمرار دون أن أستطيع أن ألتقط فكرة من مجموعة أفكار. وعند المائدة بحثت مرة أخرى عن موضع

للعمـل. ربما هذا الموضع بالفعل: إنهـا المرة الأولى التى يبدو لى فيهـا أن كل ما حملنى إلى هنا «شيء يجب عمله»، أى بمثابة عائق يجعلنـى أبقى فى هذه الحجرة، وفى هذا الفندق وفى هذه المقاطعة وأصفهم. ومكثت هكـذا، لا أدرى كم من الوقت، وأنا أستند على ظهر المقعد محاولاً أن أندمج مع المنظر الطبيعى فيما وراء النافذة.

وبعد فترة مـن الزمن، ودون أن أقرر ذلـك، رأيتنى بجوار الهاتـف عند مدخل الفندق بأسفل؛ وبحثت عن رقم هاتف المطار، وطلبت السفر فى المساء. انتظرت الرد، وكنت بين الحين والآخر أتنهـد حتى يدركوا أننى مازلـت أنتظر، ثم جاء الرد بصوت سيدة يقول: «تم تأكيد الحجز».

إن فكرة الوصول إلى النهاية جعلت كل شيء يتحرك، فشرعت أملأ حقيبتى مـرة أخرى ووضعت كل شـيء خاص بالحجرة فى مكانهِ حتى تصبـح كما كانت مرة أخرى، ومعـدة لاستقبال نزيل آخـر دون أن يكون بها شيءيتعلق بـى. وطلب الفتى والفتاة منى أن أتـرك لهما عنوانى. وقدما لى فـى المقابل بطاقة رسمية تحمل اسم الفندق والشعار الخاص به.

وقرأنا البطاقات، ونحن ندرك إلـى أين سينتهى بها الأمر، لا نعـرف، ووضع الفتى عنوانى فى جيْب قميصه، ثم نظر إلىّ مرة

أخـرى. فقلت: «حسنًـا. . .» فابتسم هو وقـال: «يجب أن أخرج وسأصطحبك حتى مترو الأنفاق».

جلسـت على اليسـار بعيدًا عن عجلـة القيـادة والدوّاسات، لا أدرى كيـف أجلـس، وكان الطريـق يبدو لـى غريبًـا، وكأننى خرجـت إلى طريق غير مألوف. وقد قلت هذا للفتى وأنا أضحك. فـرد قائلاً: «ضع حزام الأمان لأنـه إجبارى». نقل الفتى حقيبتى أمـام المحطة، وأشـار إلىّ يطلب شيئًا. فنظـرتُ إليه وانتظرت. ولكنه تردد وابتسم إلىّ ثم غادر المكان.

وعبر الطريـق الصاعد بـ «ويمبلدون بـارك» كانت علامات الأمس ـ المقعد الحجرى، والمنحنى، والفيلا والمركب الشراعى. تبدو مختلفة، وغير محـددة. تركت لنفسى العنان لأفكر قليلاً، ثم واصلت السيـر مستنشقًا عبيـر الأشجار، أو متخيـلاً الحياة داخل البيوت. وقد مررت على بيتها دون أن أدرك هذا.

وبعد المنحنـى، كان الطريق ينزل بى نحو وادٍ فسيح به حديقة كبيـرة من الأعشـاب المقلّمـة والأشجار وبحيـرة صناعية. وفى نهاية الطريق كانت هناك ناطحات سحاب وفيلات صغيرة منعزلة وملاعب مكشوفة؛ وفى الوسط يقـف فجأة وفى هدوء أشبه بالحلم إستاد التنس، «إستاد ويمبلـدون». أيقنت فقط فى تلك اللحظة أين

أنــا. شاهدت المبنـــى المنخفض هناك بأسفل بسقفــه المستدير: فهو أشبــه بصهريـــج رخو تتجمّع فيــه أهمية المنظــر الطبيعى، وحيث تسوقنى قدماى إلى هناك أنا أيضًا.

كان المدخل الوحيد المفتوح هو بوابة المتحف.

توقفــت هكذا لمشاهدة نموذج لملعــب أفريقى منقسم إلى نصفين مــن خلال شبكــة، وأيضًا من خـــلال خط الاستــواء بحيث تسافر الكرة من منتصف الأرضــ إلى المنتصف الآخر. وشاهدت أيضًا غرفــة خلع الملابس القديمة، حيث توجد ياقة قميص قوية وجاكت كإشارة وهمية إلى قدوم شخص من بعيد ليرتديهما.

كان هناك أيضًا مضرب التنس غير المكتمل بداخل ورشة غير حقيقية، وكان هذا الأمر يجعلنى أعتقد بوجود نجّار.

كانت كل هذه الأشياء مقسمة وفقًا للأهمية بطريقة محيّرة، مثل الصور. فبعض لاعبــى التنس يقفون وأذرعهم وذقونهم مرفوعة إلى أعلـــى وأيديهم مفتوحة من دون الكـــرة، وكانوا يبدون وكأن هنـــاك علاقة خاصة لهم مـــع السماء. بعد ذلك تـــم تشغيل أسطوانة إخباريـــة ممتلئـــة بالخشخشـــة؛ وكان مـــن العسير تبيـــان الأسماء، فبحثـــت عن طريـــق للخـــروج. وبداخل الممـــرات وعند درجات السلـــم البيضـــاء كان يتملكنى إحساس بوجود لـــون مختلف فوقى،

وبعد آخـر درجة سلم، اتجهت نحو الإستاد الخالى، وجلست على طرف أحد المدرجات.

لـم أكـن أدرى مـا إذا كان العشـب أو اللون الأخضـر القاتم المتجانسـ مع الطلاء هما ما يجعلان مساحة الإستاد ضيقة. وربما يكـون السبب فى ذلك هى المظلة. ففـى أعلى كانت حافتها محددة ولونها أخضر مائلا لـلأزرق، ومن أسفل كانت تتدلى مثل القبعة فتبتلـع المشاهدين داخل الظلام الـذى يشاهدون من خلاله. أما ما يتـرك مكشوفًا، وأعنى المقاعد هنـاك بأسفل، فهى تصطف حول الملعب مثل المقاعد حول مائدة الطعام.

لـم أنتبه تقريبًا للأولاد الثلاثة الذين جلسـوا هنا بجوارى بعيدًا عـن الحدائق. كنت أمعن النظر مثلهـم فى الملعب الخاوى، حيث تركت الكـرة علامة لرقم 8 الأفقى بين لاعـب وآخر، كعلامة لا نهائيـة، والأمـر ما هو إلا خـداع ضد التحرك الدائـم مع إطلاق الضربات، والتى بدورها تقوم بعمليات الصد.

الآن وبالنظرة المعتـادة يمكننى أن أميّز الاتجاهات التى بذاتها تشير إلى الفرق بيـن الأشياء: لوحة الأرقام وترتيب المدرجات، وذلك المكان المرتفع قليلاً والذى لا يمكن أن يكَون إلا المقصورة الملكية؛ وقد جلس الأولاد هناك، ربما كانوا يريدون إثبات وجهة

نظـــر. ثم ساروا بعد ذلك عند حافة الملعب حتى بلغوا درجات سلم النزول ثم اختفوا من أمامى.

إن روعـــة المكان لم تقدم لى يـــد العون، بل على العكس، ففى الواقع بعد قليل سوف تكون لدىّ آخر فرصة، وينبغى علىّ أن أجد شيئًـــا يحملنى فجأة إلى السبب الذى من أجله لم يكتب، ولكن ليست لـــدىّ إلا أفكار مرتبكة وإحساس بالبعد عـــن ذلك السؤال، وكأننى أبتعد عن دوامة مـــن الذكاء أو العقاب أو السخرية، كمقابل لذلك، أو الحـــزن المتجمـــد أو لا أدرى. لـــم تكن تطرأ علـــى ذهنى أفكار وإنمـــا عبارات فقـــط مثل: «كان يجب أن أبدأ مـــن هناك، من تلك النقطـــة. الآن الأمر أصبح مختلفًـــا». أو: «ربما الإجابة تكمن فى أننـــى سافرت، وأننى قابلت بعضـــ الأفراد أو أننى هنا. وأننى فى النهايـــة عندى . . . ؟» أو: «الكتابة ليست مهمة ولكن لا يمكن عمل شىء آخر».

أى عبـــارة كانت ضد ذلك المشهد. كنت أود فقط أن أرى وأن أسمع، ولأول مـــرة أراه غير جميل، بالفعـــل الآن، ولا أستطيع أن أصـــوّر منظرًا كليًا أو جزئيًا يهمنـــى أنا فقط. أخذت كراسة من الحقيبة لأرسم؛ ومع تحركى لمحت شكلا أسود اللون على اليمين. فعـــدت ببصـــرى تلقائيًا إلـــى الخلـــف: كان يوجد علـــى المقعد فيما

وراء المدرجات حزام يتدلــى على الأرض، وعلبة ذات بروز، وبداخلها كان يوجد بها شيء واحد فقط فى العالم: آلة تصوير.

ربما احمررْت خجلاً، لست أدرى، هل بسبب ما اعترانى من شـك أو انفعال أو مـاذا. وشعرت وكأن دمــى يُمْتَص داخل نقطة خارج جسدى، وبعد ذلك يتدفق إلى أسفل بحذر رويدًا رويدًا حتى يبدو اللون الوحيد المستقل هنا متصلا مع بقية الواقع. ومع تجوّلى بالإستاد لم أر أحدًا.

كانــت أوّل فكــرة تخطر على بالى هــى؛ أن آخذ آلــة التصوير الفوتوغرافية، وألتقط الصور التى تروقنى وأذهب بها. ثم غيّرت رأيى فأصبــح كالتالى: ألتقط الصور وأنهى شريــط الفيلم وأضعه فــى جيبى، وأسلّم الآلة الفوتوغرافيــة لقاطع التذاكر بالمتحف، ثم انتهى بىَ الأمر بصورة أكثر اعتدالاً، فقلت فى نفسى: ربما يبيعون بمكتبــة المتحف، فضلاً عن التذكارات والكنزات، شرائط أفلام، فيمكننــى أن أستعمل واحدًا منها وأترك لقاطع التذاكر آلة التصوير وشريــط الفيلم الأصلــى. فكرت هكــذا، ولكننى نظــرت إلى آلة التصوير بطرف عينى وكأننى أخشى من أن أرتد عن ذلك.

وفضلاً عن ذلــك فربما يفاجئنى مالك آلــة التصوير، وهى فى يدى مع ذهابى إلى المتحف أو فى أى اتجاه آخر يتطلب التصوير،

وخارج المتحف أيضًا. ولو تركت آلة التصوير فى مكانها عندما أذهب لشراء شريط فيلم، فقد يأتى زائر آخر وينفذ هذه الفكرة التلقائية البربرية. لم أفعل شيئًا، وانتظرتُ كالعادة أن تسير الأمور، وانشغلت فى تلك الأثناء بانتقاء بعض الصور.

كنت أسمع خلفى ضوضاء رقيقة، لم ألتفت لذلك بل نظرت بطرف عينى وسمعت وقع خطوات ينتهى عند درجات السلم، وكأن هناك قدمًا تقف بالطابق الأعلى، ثم ظلّت ساكنة فى مكانها. ربما كان هناك شخص يشاهد الإستاد أو ينظر إلى ظهرى الثابت من الخلف، أو ربما وقف يتأمل المقاعد واللون الأخضر والسماوى اللذين يشكلان خلفية للإستاد. كان ذلك الشخص يحرّك عينيه فقط وهو واقف فى مكانه. وبعد قليل بدأت أسمع مرة أخرى وقْع نعليه الرقيق فوق السطح الإسمنتى. فى تلك اللحظة كان كل شىء بجانبى وفى متناول يدى، فحاولت أن أُدْخِل أكبر قدر ممكن حتى ثنايا بنطالى المخملى، كانت تقف فوق حذائى الأصفر، فى سكون ثم تحركت ببطء بين المقاعد من ذلك الاتجاه، ثم سكنت مرة أخرى لفترة طويلة، وأخيرًا جلست ووضعت ساقًا على ساق فى هدوء بعيدًا عن آلة التصوير.

ظللنا لوقت طويل نراقب ملعب التنس وكأنه شىء مهم، ومكثنا نفكر فى علاقة كل منا بحافظة آلة التصوير. فعلاقتى أنا بها، مع وجود المدرجات فى الوسط، واللامبالاة غير المفهومة، ليست

قويـــة. وعلاقته هو أيضًا ـ لم يلمس آلة التصوير ـ غير محددة. فلا أحــد منا، رغم وجود الآخر، قد رفــع بصره عن الجانبين الأيسر والأيمن، أو عن مقعد الحكــم أو عن شريط الفيلم الممهد، وكأنهم أصبحوا فجأة شيئًا مهمًا.

حلّــت فتــرة من السكــون الطويــل والعميــق لم أشعــر خلالها بالوقــت، حيــث شردت بذهنى. وعـدتُ إلى الواقــع مرة أخرى عندما انزلقت حافظة آلة التصوير برفق، بعيدًا عنى بعد جذبها من حزامها الصغير. لم ينظر هو إليهــا، ووضع إصبعى الإبهام على الجزء البارز من الحافظة، ونزع الجلد عنها ليرى مدى صلاحيتها بالداخــل. ثم مكث وآلة التصويــر الفوتوغرافية فى حجره منتظرًا لشىء، لا أدرى ما هو.

ابتعد ذلــك الشخص فى هــدوء دون أن يستعمل درجات السلم القريبة. ظل يتجوّل بنصف الإستاد تقريبًا وهو ينظر إلى الأثاثات، ثم توقــف لبرهـــة بالقرب مــن كابينـــة المعلقين. وعندمــا تجاوز الملعــب، وتأملته بدقة بجاكته المصنـــوع من جلد الرنّة، ونظارته الداكنـــة، أيقنت أنه لم يكن واحدًا من الفتيــان الذين كانوا يجلسون من قبل.

صعدت مرة أخرى التــل، وعبرت من خلال الحديقة العامة. وكنــت أستدير من حين لآخــر لأشاهد الــوادى والإستاد الهادئين المسالمين.

كانت الحفر بداخل الأعشـاب تبدو وكأنها جحر لحيوان صغير دقيـق، ثم أدركت أن هذه الحفر من أجـل لعبة الجولف. وتابعت هذه الحفر دون الاكتراث بأى شيء آخر إلى أن وصلت إلى ساحة بـلا أشجار وبلا أى شيء، تقف تقريبًا أمام السياج الخشبى الداكن للمنزل. وأيقنت أننى لا أعرف على الإطلاق ماذا أقول. ووصلت عند البوابة، وأنا أشعر بغبطة رقيقة لا أجد تفسيرًا لها.

قالـت هى: «كيـف حالـك؟»، فابتسمت وقلت لهـا: «بخير». وتحدثنا عـن الإنجليز وعـن الحدائـق، واستغلينا لحظـات اللقاء الأولـى بأكبر قدر ممكن. لسـت أدرى ما إذا كانـت أناقة ردائها الصـوف، أو إبريق الشـاى والحلوى المعدة فـوق المائدة، هى مـا جعلـت كل شيء أكثـر يسرًا وبـلا أهمية، إلى أن ثنـت رأسها بصـورة لافتة للنظر قائلة: «هذه الليلـة نمت قليلاً. وقد فكرت فيما قلناه بالأمس. ووصلت إلى استنتاج». فأجبت قائلا: «حسنا»، فى الواقع أنا أكثر توترًا، وأشعر بالذنب لأننى نمت فى هدوء دون أن أفكر فى شيء.

«هذا هـو الاستنتـاج؛ عندما تعرفـت إليه لم يخطـر بذهنى أنه كاتب. واعتقـدت أن لديه اتجاهين: أحدهما أن يجعل الناس تعرف مـا كان يبدو مهما بالنسبة لـه، والآخر، هناك مرحلـة فى الحياة يجب على المرء أن يأخذ فيها قرارًا رئيسيًا. فى هذه المرحلة تتغيّر

الأمور، أو يجب أن تتغير ولا يمكن الاستمرار مع إجراء تعديلات إضافيـة وذاتية. فكثير من الأشخاص قد التقوا به بعد أن بلغوا هذه المرحلـة، وقد ساعدهم هو على التغيير أو علـى أخذ القرار. وأنا أعتقد أن هنا تكمن متعته ويكمن عمله العظيم. ولا شيء آخر سوى ذلك».

لـم أرد عليهـا. فحتى الأمس كنـت أحـاول أن أرسم بصعوبة صـورة دقيقة هكذا ومحـددة. مكثت صامتًا بصـورة مختلفة، فقد كنـت أنتظر لحظة مواتية كي أنتقـل إلى حديث آخر، أو أستفيد من الإشارة الوحيدة التي قالتها عن طريقته في المشي أو في الضحك، حتـى أُكَوِّنَ فكرتي عن رأيه في الكتابة. الآن أصغي إليها دون أن أستغرق وقتًـا ودون أن تعتريني أفكار موازية لما تقوله. وكأنني لست في حاجة إلى كل إشارة ترد على ذهني.

قالت هـي: «الشـيء الأكثر غرابـة هـو؛ أن الأشخاص كانوا مقتنعيـن بأنهم قد نجحوا في ذلك بمفردهـم. وذات مرة قرأت في بعضـ المقالات: «من المستحيل أن نقول فيما كان يفكر هو» كيف يكون مـن المستحيل؟ فكل فرد ربما يقـول: «هذه كانت مشكلتي، وبسبـب هـذه المشكلة ذهبت إليـه واستطعت أن أحلهـا معه»... فحين توجد مشكلة حقيقية ويتم حلها، ربما تبدو وكأنها لم تكن أبدًا. أو ربمـا كان ذلك آخر جزئية تضفـي صفة الكمال على مساعدته. هل تعتقد أن شيئًا مثل هذا يجعل المرء يكتب؟»

أسندت على ذراعىّ المقعـد، وابتسمت قائلاً: «لا أدرى، فكل هـذا الآن لم تعد له أهميـة». رفعت هى حاجبيهـا فى حذر، وفى شـىء من السخريـة. وقالت بصـوت خافت: «تخيـل! . . .» . . نظرتُ إليهـا وابتسمتُ مرة أخرى كشخصـ غريب عن المكان. وقلـت لها: «لا، فشـىء مثل هـذا يتعارض مع الكتابـة». وربما كانـت مسألـة تباين، لا أدرى . ففى الكتب نجـد أفعالا وطرقًا فى المعيشـة وعلاقات مع الأشياء وصورًا للتعاملات أو التفكير تكون لدى المرء من قبل ثم يعيد استغلالها مرة أخرى، دون أن يدرى، فـى الحياة مثـل كل شىء. وربمـا لا تكون هذه الأشيـاء هى التى نعـوّل عليهـا. فالتعامل الحقيقى الذى يوجد فـى الكتب هو التعامل إزاء الشـكل. تعامل مَن يقوم بالكتابة ذاته. فربما يساعد ذلك على التغيُّـر، أو أخذ القـرار أو يساعـد على الوجـود، ولكن بصورة مختلفـة عن «شىء هكذا». وهذا هو الـذى يبدو لى الآن «مهمًا». ابتسمت هى وقالت مرة أخرى: «تخيل!». ولكن فى صوت هادئ ومُبْهم. شردتْ قليلاً ثم واصلت حديثها فى هدوء قائلة: «ذات يوم تناقشنـا حول استحالة البدء فـى الكتابة، كان هو يكتب خطابات أو ملاحظات، ولكن عندما كان يجب عليه أن يكتب حقًا صفحة كانت تواجهـه صعوبات بالغة. قـال لى: «ذات يوم سنكتـب قصة معًا، جملة تَخُطِّينها أنت، وجملة أكتبها أنا، بحيث تسير القصة من جانب إلى آخر». . . منذ سنوات بعيدة كان علىّ أن أكتب بعض القصص

لجريـدة ألمانية. وكان يعلن عن القصة يـوم الجمعة لقراءتها يوم الاثنين. لذ كنت مرغمة على الكتابة. كنت أبدأ القصة وعندما أصل إلــى منتصفها كنت أرتعد خوفًا، لا أدرى لماذا؟ وكان ذلك يثيرنى جدًا، ولكن كان على أية حال شيئًا فظيعًا».

تنهّـدت بعمـق قائلة: «الآن وكمـا قلت لك، عندمـا أحاول أن أكتَـب أجد «بوبى» أمامى، وبالطبع فأنا أنظر إلى كل قصة بعيون «بوبى...».

لــم أكن قط قريبًا هكذا من الإجابة، وغير عابئ أيضًا بالسؤال. فــى البداية كنت أعتقد أنه فى أحد هـذه اللقاءات سوف تكون هناك لحظـة توضيـح؛ وأن الموضـوع والأشخاص والحجـرة سوف تتناغم كلها بصـورة متقنة فى ذات الوقت، وأننى، ولا أحد يعلم، سـوف أتحوّل بصـورة لا أدركهـا بسبب ما اعترانــى من توتر. الآن لا أعـرف ما إذا كان الانبهار هو الـذى جعلنى أفكر فى ذلك أو هـو الحذر الذى دفعنى لأبتعد عنه. حاولـت أن أخبرها بذلك، واستخدمـت عبارات أخـرى، دون أن أتعرّض أبـدًا لأية جزئية تتعلق بالصراحة. ثنت هى رأسها وقالت: «أعلم هذا». ثم ابتسمت بطريقـة غير مألوفة قائلة: «إن حياتى معـه كانت تمتلئ بأشخاص يريـدون أن يرونه»، بدون حضورى. كانـوا يقولون لى: «هل يضايقـك أن أتحدث معه بمفردنا؟» فكنـت أذهب لاتنزه، وعندما

كنت أعود كان الشخص الآخر يغادر المكان، وهو ينظر فى اتجاه مختلف. ولكن ذات مرة كنت حاضرة عندما غيّر هو حياة شخص فى منتصف الطريـق. كنا نتناول الغداء بمطعـم فى الهواء الطلق مـع شاب كان يريـد أن يلتقى بـه ليكتب مقالاً عن كاتـب ألمانى. وفى لحظة محددة شرع ذلك الشاب يتحدث عن نفسه. لم يقل شيئًا خاصًـا، ولكن أسلوبه فى الـكلام كان يجعل ما يقوله غير مفهوم. أنصتنـا إليه، وفى النهايـة قال له «بوبى»: «لمـاذا تريد أن تكتب مقالات؟ عليك أن تروى هذه الأشياء وكأنها قد حدثت لك، أو كما حكيتها لنا الآن». وبالفعل عمل الشاب بتلك النصيحة بعد ذلك.

قامـت هى بترتيب موضع الفنجان والسكين والمنديل الورقى، ثم حركتها قليلاً، وكأن من الضرورى أن يتطابق ذلك مع صورة غير مرئية رُسمت من قبل فوق المائدة الصغيرة. ثم سألتنى قائلة: «أين تناولت الطعام اليوم؟»

فوصفـت لها محلا عامًا عند سفح التل بأضوائه الغامضة، دون فائدة، وكأنها حانة ليلية.

فأجابت هى قائلة: «نعم، أعرفه. ولم أعد أذهب إليه. فأنا الآن أتبـع نظام الوجبـة الأساسية: كثير من الفاكهة مـع الجبن والقهوة والزبادى».

ثم أشــارت فى رقة قائلة: «فى بعضــ الأحيان تجتاحنى رغبة مجنونة فى تناول الموتزاريللا».

خيّم السكــون علينا، وشرد كل منا فى أفــكاره المختلفة إلى أن استــدارت بوجهٍ جُلُه مشرق قائلة: «قلــت بالأمس إنك كنت تشعر بالبرد». وحاولت أن أربط مرة أخرى بين هذه العبارة وبين أحد المواقف، أو بيــن الطريقة الهادئة التى ابتعدتْ بها، الآن، متجهة نحو حجرة أخرى. وأسفت على عدم قدرتى على تجنب ضوضاء شرائط الكاسيت التى كانت تنبعــث من هناك. وعادت هى ومعها كيس داكن اللون. وقالت: «إن معىَ هدية لك من «بوبى»».

نظرتُ إلى الكيس ثم نظــرتُ إليها. وشعرتُ بأننى قد التصقت بشــدة بالمقعد. ومع خرفشة ورق السلوفــان انزلق خارج الكيس شىء ناعــم الملمس ثم بسطته، وهى تمسك به مفتوحًا من الخلف، فــكان يبدو وكأنه بلوفر مــن الصوف قصير التيلــة الممشط ولونه رماديًا فاتحًا جــدًا، ورقبته على هيئة حــرف V. وابتسمت قائلة: «من يدرِ، فقد يلائمك».

نهضتُ واقفًا وكنت أشعر وكأن جسدى قد فقد كل عزيمة لديه. ووضعت هى البلوفر على الجاكت الذى كنت أرتديه لقياس الكتفين والكمّيــن. وكانت تهتم بــكل جزئية بنظراتها التــى كانت تتحاشى

رؤية وجهى، وقالت: «إنه قصير وواسع. ولكنك ستقوم بإصلاح ذلـك». وتركـت البلوفر هكـذا. وعندمـا أوشك علـى السقوط، أمسكـتُ به وأنا أضغطُ بيدىَ على المعدة. وشمَمت رائحة الكافور وأحسست بمتانة الصوف. وقلت لها كإنسان آلىّ: «شكرا».

ومرت لحظات، ومع تناولى للشاى، كنت أنظر من حين لآخر للبلوفـر الـذى وضعته، فى نهاية الأمر، علـى أحد المقاعد. كنت أود ألا يكترث أحد منا بذلك. ولكن فى الفترات التى كان يهدأ فيها الحـوار، كنت أسبح ببصرى تجـاه آلة البيانو أو النافذة، ثم ينتهى الأمر هناك بصورة لا إرادية.

قالت هـى: «فى كل مساء، وما إن أعـد كل شىء لأجلس أمام التليفزيون، يتصل بى شخص. ففى هذا الوقت يقل سعر المكالمة، والجميع يتصلون بى، عندما أوشك على تشغيل التليفزيون. وآخر مرة ذهبت فيها إلى السينما كان لرؤية فيلم «الحياة الحلوة»، ولكنى أشاهـد الأفلام دائمًا بالتليفزيون. وقد تغيّرت أشياء كثيرة، فلم تعد لدىّ حتى القطط التى يتحدث عنها «مونتالى» فى قصائده...».

نظرتْ إلـىّ نظرة خاطفة كى ترى ما إذا كنـت أعرف «آليوبا الراحلة»؛ فأشرت لها بالمعرفة. ولبرهة تخيلت «جرتى»، وهى، «ليوبا»؛ مرة أخرى كأسماء مجردة. وفكرت فى قدرة هذا التجريد

وفى قوة حرفى «الراء» و»الأوه» وفى كيفية استخدام «مونتالى» للأسماء وللنساء فى أشعاره. وفى الطريقة المضادة التى استخدمها بدقــة فى شعــره: كدعابة عاطفيــة فى علاقته مع النســاء مع كتابته قصيدة شعر أيضًا «لجرتى» بمناسبة عيد ميلاده، ولـ «ليوبا» حتى لا تخاف من اللصوص. لست أدرى، وكأن السكون لا يسمح بأى تزيف أو حتى بأى احتمال وأعنى بذلك الحياة. ربما يتطلب الأمر شيئًــا أكثر تحديدًا، مع تحديده بالاسم. واعتقدت أن السكون يُرْغِم المرء على القيام برحلات طويلة لكى يرى. وقد فكرت فى كل هذا مع ظنى بأنها سوف تكون آخر مرة أفكر فى ذلك.

ابتسمتُ وقلت لها: «القطط من الجميل جدًا إزعاجها».

فسألتنى هى: «إزعاجها! كيف؟».

ضحكــتُ مرة أخرى قائلاً: «بــأن نلقى بمقعد على الأرضية أو بمائدة صغيرة، وسوف تقترب القطط بحذر ودهشة، وكأن هناك كارثــة قد حلت بالأثاث، فهزت رأسها قائلة: «القطط مثل اليهود، صعــب أن يكونــوا أغبياء، ولكــن عندما يصبحون كذلــك فالغباء يتملكهم تمامًا. على أية حال لم تعد لدىّ الآن قطط».

كانت يداها وفمها تعبر كل بطريقته كما لو كانوا مهيئين فى وقت واحد لتغيّرات شاملة.

أما أنا، فكان البلوفر لا يفارق خيالى.

قالت هى: «لم أعد أذهب كثيرًا إلى المدينة. كنت هناك فى الأسبوع الماضى لكى أشترى آلة حاسبة صغيرة، كنت أرغب فى شرائها منذ زمن. وما إن عدت إلى المنزل حتى عطبت، وأعتقد أننى سأستغنى عنها. وهناك شىء آخر لم أعد أبدًا قادرة على القيام به، ألا وهو أن أشترى لنفسى ملابس. ففى المتجر توجد منها العشرات، بيد أننى لا أعرف أين توجد ولا أشاهدها أمامى، وعندما أعثر عليها لا تروقنى. وربما هناك سبب آخر، أيضًا... كان يوماً جميلاً للغاية، ولم يكن عندى ما يشغلنى، حتى الصداع لم أكن أشكو منه، وانتقيت من متجر «ماركس وسبنس» رداءً طويلاً به بعض الألوان، وانحنيت لكى أوقّع على الشيك وانتهى الأمر فى ظلام ثقيل...».

لم أعلق على كلامها، ونظرتُ ببصرى إلى أسفل نحو شىء غير محدد. وواصلتْ هى حديثها قائلة: «أن نرى ليس أمرًامهمًا. فهناك أيضًا العكس: أن نكون غير مرئيين من الآخر، لاسيما عندما نكون فى حالة نفسية معينة ومدركين. ألم يحدث لك مثل هذا؟»

ابتسمــتُ بطريقة تحمل معنـــى «لا أعــرف» أو «لا أتذكر» أو «أننـــى أوهم نفسى دائمًــا بأننى مرئى». وتقدمت هـــى إلى الأمام وصمتت قليلاً قبل أن تتحدث. ثم قالت: «بعد انتهاء مراسم الجنازة بميلانو، ذهبت إلى المطار. كنت فى حاجة لتناول عصير برتقال وقرص إسبريــن. ولكن نظرًا لحلول الليــل، كانت كل المحلات مغلقة، لذا لم أشــرب شيئًا ولم آخذ الإسبرين. ولم أشعر بذاتى إلا وأنــا بداخل الطائرة، شبــه الفارغــة، لا أدرى كيف، مع وجود إضــاءة للقراءة. كنت أجلس فــى منتصف الطائــرة وكأننى لست موجودة، وفجأة وفى نفس اللحظة لمحت العلامة المضيئة الخاصة بإنجلترا، وشممت رائحة الطعــام، واقترب منى مضيف الطائرة وقــال: «إنك لــم تأخذى طعامــك. وهذا يفسر سبــب وجود وجبة زائــدة، فأجبت قائلــة: «لا يهم، يكفينى قدح مــن القهوة». فقال: «بالتأكيــد» وبعد ذلك نسيت القهوة والطائــرة. ولم يأت المضيف مرة أخرى.

مــا حدث بعد ذلك كان أشبه بالخيالات؛ صالة الانتظار وموقف سيــارات الأجرة، وحقيبتى الصغيرة التــى ظهرت فجأة لا أدرى من أين. لم يسألنى أحد عن جواز سفرى أو يفحص حقيبتى. ومن المطــار إلى «ويمبلدون» لــم أستغرق سوى عشر ثــوانٍ. وأمام منزلــى قال لى سائق التاكسى: «هل أنت بخير يا سيدتى؟لو شئت، أصعــد معك وأعد لــك فنجانًا من الشاى». وبداخــل المطبخ، فتح

السائــق الــدولاب وغسل إبريــق الشــاى دون أن يتكلم. ووضع فنجانًــا واحدًا علــى المادئدة وصــبّ لنفسه الشــاى المغلى وشرع يرتشفــه. وعندما انتهى من تناول الشاى قال لى: «تبدين الآن فى حالة طيبة». ودفعت له أجرة التاكسى وغادر المنزل.

كانت هنــاك دوّامة من الكلمــات، وأنا أطــارد بداخلها صورًا ذات سرعــات تفوق سرعتى، إلى أن يهــدأ الهواء فأخفض أنا من سرعتى مرة أخرى.

وسوف أعتقد أننى قد رأيت كل هذا من قبل، وسأذكره بطريقة مختلفــة. وبعــد قليل، وعندمــا أقــول أيضًا: «حسنًــا......»، وسألتها: كم أستغرق من الوقت من هنا حتى المطار، سوف أنهض وهى ستنهض، وسوف أمُرُّ من بين المقاعد، وأنا أميل جهة اليسار لكى أنسى هنا ما أريده، فسوف يكون ذلك مختلفًا عما أتخيله وعما سأذكــره. والفكرة هو؛ أن هناك لحظة، بين الاختراع والذاكرة، فيها سوف يحدث كل هذا، رغم أنها لن تكون أبدًا محسوسة.

ابتسمتُ لها وأنا أقف عند باب الخروج ثم تعانقنا.

وعندما أوشكتُ على الرحيل قالت لى: «البلوفر؟»

فقلتُ: «نعم، البلوفر».

عادت ومعها البلوفر، ولكن بـدون الكيس؛ وانحنيتُ أنا لأفتح الحقيقة، قالت هى: «ارتده. فالجو رطب بالخارج».

وفى لحظة توقف غريبة وصامتة، فكرتُ فى احتمالات مختلفة بما فيها بقائى هكـذا منحنيًا وساكنًا فى مكانى، وكأن هناك انفصالا شديـدًا عن الزمنِ يمكن أن يعفينـى من اعتذارات بسيطة أو صعب تعليلها.

كانت هى فى تلك اللحظة أكثر اهتمامًا، لدرجة أننى كنت أشعر بالانزعاج، وبقيتُ وحقيبتى مفتوحة لأطول فترة ممكنة حتى أبرر وقوفى ساكنًـا. بعد ذلك نهضتُ ببـطء ودون أن أنظر أو أسمع، ارتديتُ البلوفر مع الأمل فى أن يكون بمثابة رداء واقٍ.

قالت هى: «أوه، إنه رائع جدًا تحت هذا الجاكت».

فقلتُ: «نعم».

وتبادلنـا التحية مرة أخرى. وأخـذتُ حقيبتى وخرجت. كان يبدو لى أننى لو لم أكن قد تنفستُ لكان إحساسى بالواقع أقل.

ومع نزولـي للتل، كنت أفكـر بين الفينة والأخـرى فى سُمْك القميـص، وكنـت أتسـاءل: هـل ستكون هنـاك علاقة بيـن فترة ارتدائـي للبلوفـر وأى إحساسـ آخـر. وسرت بخطـوات جادة ومتعجلـة وكأننى أرتدى زيًا عسكريًا. ومن يعلم، كم من الكلمات تلـزم لكى أشرح للأشخاص الجالسين فى هذه الحدائق، فى هدوء أمام منازلهم، قبل غروب الشمس.

كانت قمـة المحطة الصغيرة تظهر مـن بعيد، ونزلتُ درجات السلـم واشتريتُ من الزنجي تذكرة لهيثـرو. وذهبتُ لأقف تحت مظلـة المحطة الخاوية حتى وصلت لآخـر مقعد، والذى كان يطل علـى الريف ومكتوبًا عليـه «خاص بالسادة». وهنـاك بالداخل، ومع خرير الماء المنساب، بحثتُ عن سبب على الجدران المطلية باللون الأبيض والأحمر، وفـى النهاية علقت الجاكت على جانب أحد الأبـواب. وخلعت البلوفر ووضعته علـى الحقيبة. وارتديتُ الجاكت مرة أخرى، وهذّبت شعرى بإحدى يدىّ حتى يبدو منسقًا، وإن لـم تكن هناك مرآة. وبالخارج كنت أسمع صوتًا متناسقًا أشبه بصرير متواصل.

كنـت أجلسـ ساكنًا أمـام القطـار المصنوع مـن الألومنيوم، وكانـت الشمس خلفى توشك على الغروب فى جانب منها. لم أكن هكذا أبدًا فى البداية، محددًا ومترددًا.

ومع انتظــار فتح أبواب القطار ، بحثتُ فى جيبى عن التذكرة . ثــم حملت الحقيبة بيــد ، وبالأخرى كنت أمسك البلوفــر برقة أشبه بتلك التى تُمسك بها يد طفل .

المؤلف فى سطور:

دانيلى ديل جوديتشيه

ولد فى روما عام 1949 وهو كاتب وأستاذ جامعى.

بدأ «**دانيلى ديل جوديتشيه**»: نشاطه الأدبى بقصته «**إستاد ويمبلدون**» عام 1983 وقامت بنشرها دار «إيناودي». فى عام 1988 قام بنشر قصته «فى متحف ريمس». وفى عام 1994 قام بنشر قصته «نزع الظل من الأرض» التى حصل من أجلها على جائزة «باجوتا». وفى عام 1997 قام بنشر مجموعة من القصص تحت عنوان «هوس». وفى عام 2001 قام بالاشتراك مع «ماركو باولينى» بكتابة «أنشودة من أجل أوستيكا».

حصل «**دانيلى ديل جوديتشيه**» على مجموعة من الجوائز منها جائزة «فيارجو» فى عام 1983 وجائزة «برجامو» فى عام 1986 وجائزة «باجوتا» فى عام 1995، وفى عام 2000 حصل على جائزة «فلترنيللى». وقد تمت ترجمة أعماله الأدبية إلى عدة لغات.

المترجم فى سطور:

سيد الشيخ

ولـد فى السويس عـام 1962 . التحق بكليـة الألسن فى جامعة عيـن شمس عام 1980 وحصـل على ليسانس اللغـة الإيطالية فى عام 1984 بتقديـر «جيد جدًا» مع مرتبة الشرف . كما حصل على ماجستيـر الألسـن فـى الأدب الإيطالى عـام 1992 وكان عنوان الرسالـة «دراسة مقارنة بين روايـة «الأرض» للكاتب المصرى «عبد الرحمن الشرقاوى» وروايـة «فونتامارا» للكاتب الإيطالى «أنيستو سيلونى» ، وحصل على تقدير ممتاز .

كما حصل على درجة دكتوراه الألسن فى الأدب الإيطالى عام 2002 ، وكان عنوان الرسالة «مصر فى عيون الأدب الإيطالى» وقد حصل على تقدير مرتبة الشرف الأولى .

يعمل حاليًا مدرسًا لـلأدب والترجمة الإيطالية بكلية الألسن فى جامعة عين شمس .

التصحيح اللغوى: وجيه فاروق

الإشراف الفنى: حسن كامل





هذه الرواية تحكى لنا عن شاب يقوم بتحقيق حول شخصية محددة، بعد وفاتها بخمسة عشر عاما، ويذهب ليبحث عن أصدقائها وصديقاتها فى فترة الشباب الذين أصبحوا الآن فى سن متقدمة. من كانت هذه الشخصية التى تعد شخصية متأصلة فى الحياة الأدبية الإيطالية، وصديقة لشعراء وكتاب لا يهم؛ لأن الحديث عنها فى القصة يسير بلا تحديد وعن بعد، ولاسيما ليقال إنها لا تهم الشاب رغم تتبعه آثار هذه الأسطورة. ماذا يريد أن يقول لنا هذا الكتاب غير المألوف؟ هل يخبرنا باستهلال أول قصة لكاتب شاب؟ أم هى محاولة اقتراب جديدة من التصوير والرواية من خلال نظام جديد للجمل المعطوفة ؟

إيطالو كالفينو

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح